موريس ط. ماشينو



فرنسا جمهورية الدراويش



تعريب:

حميد زناز

منشورات الجمل

موريس ط. ماشينو

فرنسا
جمهورية الدراويش

تعريب:

حميد زناز

منشورات الجمل

موريس ط. ماشينو: فرنسا جمهورية الدراويش

موريس ط. ماشينو: فرنسا جمهورية الدراويش، تعريب: حميد زناز
الطبعة الأولى ٢٠١٤

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Maurice T. Maschion :La République des bigots, 2009

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

من هو موريس ط. ماشينو؟[١]

ترك فرنسا وجاء إلى المغرب ليدرّس الفلسفة في ثانوية آزرو سنة ١٩٥٦. ولما اكتشف حرب الجزائر سنة ١٩٥٦ انخرط مباشرة في النضال من أجل استقلال الجزائر. وبدأ يعبر عن مواقفه المعادية للاستعمار الفرنسي في الجرائد المغربية وغيرها. وهو ما جعل السلطات الفرنسية تلغي حقه في تأجيل الالتحاق بالخدمة العسكرية وتتهمه بالمس بأمن الدولة.

ولكنه رفض الالتحاق بالجيش وفر إلى تونس. وبعد استقلال الجزائر سنة ١٩٦٢ منحت له الجنسية الجزائرية وتعبيراً عن ارتباطه العميق بالجزائر تبنى لقباً ثانياً هو "طارق"، وتزوج من جزائرية أصبحت فيما بعد كاتبة مشهورة ومناضلة نسوية كبيرة هي فضيلة مرابط. وقد نشّط معها حصة إذاعية على أمواج الإذاعة الوطنية الجزائرية سرعان ما منعت بسبب توجهها الديمقراطي

---

(١) Maurice T.Machino

عموما ومواقف فضيلة المناصرة لقضية المرأة خصوصاً. وبعد انقلاب ١٩٦٥ منعا من الكتابة حتى في الصحافة المكتوبة وغادرا الجزائر للاستقرار بباريس سنة ١٩٧١.

أصدر أكثر من عشرين كتاباً كان أولها "الرفض" سنة ١٩٦٠. و"جزائر الأوهام: الثورة المصادرة" (١٩٧٢) ثم اهتم بمشاكل المدرسة الفرنسية وتدخل الكنيسة في الحياة العامة وأصدر في الموضوعين كتبا كثيرة من بينها: "المدرسة مصنع لإنتاج البطالين"، "مدرسة الجبن"، "انسوا الفلاسفة!"...

وداعا أيتها العلمانية![1]

ملل ونحل في ازدهار منقطع النظير، ودالاي لاما يكاد أن يغدو معشوق كل الدول الأوروبية، وبابا يزور مدينة لورد[2] في زيارة حج رسولي ومع ذلك تستقبله الحكومة الفرنسية وسط تشريفات تليق برئيس دولة. أعفي تلاميذ من دروسهم من أجل الهتاف له، وعلى حافتيّ الطريق تصطف جماهير هاذية تتدافع وتتصارع من أجل رؤية العجوز المقدس. وبتنا نرى رئيس جمهورية لائكية يتقمص عباءة داعية مبشّر، ينادي في الناس مؤكداً أن "الرب موجود في قلب كل إنسان"، ويولي الكاهن مكانة أرفع من مرتبة المعلم في عملية التربية والتعليم. ومع كل هذا يصمت المثقفون: في أية عالم نحن نعيش؟ أهو عالم أنذال أم عالم مجانين؟

---

(١) عناوين الفصول من وضع المترجم.

(٢) Lourdes.

علمانية "منفتحة"؟ ولكن بأي معنى هل لتنفتح على ناكريها ونفاتها والمشنعين بها؟ هل تنفتح على الذين يثير سخطهم فيلماً سينمائياً لمجرد اعتقادهم أن فيه مسبة لعقيدتهم واعتباره مناهضاً لكهنوتهم؟ أم ينبغي على العلمانية الفرنسية أن تنفتح على هؤلاء الذين يحاربون قانون الإجهاض مثلاً ويعتبرونه قانوناً يبيح قتل النفس البشرية؟ هل نحن في حاجة إلى لائكية بديلة منفتحة على كل الذين يحاولون خنقها وإحلال مكانها منظومة أخلاقية تتماشى مع قيم الكنيسة الكاثوليكية المتخلفة.

وعلى عكس ما يعتقد كثير من الناس السذج، لم تهضم الكنيسة أبداً إبعادها عن السلطة السياسية، وما تصريحات القساوسة المثمنة لاحترام النظام اللائكي سوى ذر الرماد في العيون. فهي ما زالت تعمل جاهدة على إسماع صوتها عن طريق المنشورات البابوية، وتبريكات البابا، والمواعظ، ونشاط عديد من وكلائها. تحاول أن يكون لها قبضة على سلوك الناس وأخلاقهم التي تزعم أنها في انحلال مستمر. فهي تعارض على سبيل المثال بكل ما أوتيت من قوة كل تغيير ليبرالي يمس القانون المتعلق بمرحلة الشيخوخة أو نهاية الحياة الإرادية أو الموت الرحيم. يزداد نشاط ممثلي الكنيسة خصوصاً على مستوى هيئات الإتحاد الأوروبي في كل من بروكسل استراسبورغ، فيتدخلون في تحرير التوصيات وتوجيه السياسيين، في محاولة لفرض تشريع

خانق للحريات على الأوروبيين وذلك تحت شعار الدفاع عن الحرية. ولئن كان هذا الأمر بديهيا، فإنه يبقى مجهولاً لدى أغلبية الأوروبيين. ما يحيّرني وأنا أتجاذب أطراف الحديث مع معارفي وأصدقائي، من كل الأعمار، هو جهلهم التام، ليس في ما يتعلق بنشاط الكنيسة السياسي فحسب بل بكل مواقفها الدوغمائية ومبادئها الأخلاقية وكذا نمط الحياة والعقلية التي تحاول أن تفرض على من يسيرون على تعاليمها، وبشكل يزيد أو ينقص حتى على الذين لا يعيرونها أدنى اهتمام.

وسواء أكنا من المؤمنين أو من غير المؤمنين، لاأدريين أو ملحدين، فإننا نعاني ولو بدرجات متفاوتة من ذلك النظام الأخلاقي القاتل الذي أفرزته المؤسسة الكنسية وفرضته بحد السيوف ولهيب المحارق خلال أكثر من ألف سنة والذي غدا اليوم "نظرة" الأوروبيين إلى العالم أو "حساسيتهم". تعود الصورة الكاريكاتورية التي تحملها الأغلبية عن الإسلام إلى الحقد الذي يؤججه الموالون والخاضعون للكنيسة وعلى رأسهم البابا بنيدكتوس السادس عشر. مثلما هو حال تصورنا الغريب للحياة التي نصر على استمرارها مهما كان الثمن حتى ولو كان "العائش" يعوي من الآلام ويستغيث مطالباً بالموت! ذلك ما غرس في أعماق الناس عن طريق التعليم الكنسي. ما كان ممكنا أن يخطر على بالي التذكير بهذه البديهيات لو لم ألاحظ وفي

الأوساط الأكثر تنوعا هذا القدر من الجهل حول طبيعة الخطاب الكاثوليكي وأذى وكلائه. لم أكن لأفعل أيضاً لو لا خطاب رئيس الجمهورية[1] المخزي الذي حرك في نفسي الرفض المطلق لديانة طالما عايشت في شبابي درجة الكره التي يكنها للحياة وأفراحها ممثلوها ودراويشها المتعصبون. ولئن كانت تعاليم الأديان لاعقلانية، فهناك من المتوهمين والهاذين من يرون فيها الحقيقة كلها. وعلى كل حال فلا إشكال ما دام هذا الهذيان لا يضر أحداً، ولكن تتعقد الأمور حينما يحاول بعضهم فرض معتقداته وأخلاقه وطريقته في العيش على المواطنين طراً.

لم تعد فرنسا كسابق عهدها، فقد ابتلى أغلب مواطنيها بأنانية مفرطة وبجهل مطبق. أما المثقفون فهم يجاملون السلطة ويتلهفون على تشريفاتها إلى حد لا يضيرهم أن تستقبل الجمهورية بابا الفاتيكان بتلك الهالة من التقديس ودون أن يثير فيهم ذلك أدنى سخط.

---

(١) ساركوزي.

البابا في مدينة الأنوار

ها هو هنا في باريس! بالأمس كان عضواً في منظمة الشباب الهتلرية واليوم ينشد إحلال السلام بين البشر. ذاك الذي يدير واحدة من أقوى آلات الحرب الإيديولوجية، بل أكثرها قتلاً!

طبعا يبدو هذا الشيخ الملتحف بالحب الكوني مسالما وهو يلعب دور الجد المتيم بالأطفال والمبشر الطيب الذي يدعو رافعاً يديه طالباً من السماء أن تنعم على الإنسانية بالوفاق والسعادة.

وربما هنا يكمن سر النجاح الذي يلقاه خلال لقاءاته: ضعاف عقول أو غير ناضجين مستعدون للإيمان بأي هراء. محبطون ومشتاقو رجاء، مهووسون بالانتقام ومتعصبون معادون للائكية، كل ذوي العاهات في الوجود ومعطوبي العقل.. يتدافعون ويمشون فوق بعضهم البعض من أجل أن يلمحوا طيف الشيخ أو يصلهم صوته ولو من بعيد. لا أحد ـ لا فئة ولا صوت ـ يسعى لإيقاظهم وإخراجهم من غيبوبتهم الفكرية أو على الأقل حثهم على التفكير.

والأردأ من كل هذا هو أن يصرّح رئيس جمهورية لائكية وبالصوت العالي أن أهمية الجمهورية يكمن في "وجود كثير من الناس الذين يأملون". بمعنى أن "الإنسان الذي يؤمن، هو إنسان يأمل". وعلى الكنيسة أن تنشر هذا "الرجاء" : "في عملية انتقال القيم وتعلم التفريق بين الخير والشر، لا يستطيع المعلم أن يكون بديلا للكاهن"[١].

لم يثر ذلك أي سخط في أوساط المفكرين بل لاذ أغلبهم بالصمت بل انبطحوا أرضاً. وبعد حذاء الرئيس ها هم ينتقلون إلى مسح حذاء البابا: "يتحدث بينديكتوس السادس عشر كمثقف فرنسي"[٢]، يقرر كاهن النوفال أوبسرفاتور. ويزايد راهب آخر من نفس الأسبوعية كاتبا: "تسير الكاثوليكية بخطى ثابتة نحو جهة العقل[٣]" (كذا!).

مثل خدام الدعاية الفاتيكانية الطيّعين، أظهرت وسائل الإعلام ورعاً معسولاً.. إذ لم تُذَكر بذاك الخليط الإيديولوجي الكئيب الذي يخفيه تاجر الأوهام في معطفه مثل:

ـ خوف من المرأة واحتقارها. ما تزال مطرودة من المناصب

(١) Discours prononcé à St-Jean-de-Latran, au Vatican, le 20 déc. 2007.

(٢) Jean Daniel,Le Nouvel Observateur, le 18 sept. 2008.

(٣) Jacques Julliard, ibid.

الكهنوتية وينظر إليها على أنها كائن قاصر وخاضع لإرادة الرجال إلى الأبد، لا مهمة أساسية لها سوى الإنجاب.

ـ تبقى المرأة في لاوعي رجال الدين الكاثوليك غاوية، أخت حواء، التي بواسطة تفاحتها ـ تفاحة المعرفة ـ أغوت وأفسدت آدم.

ـ وضع القسيس المبتور، رجل مزدوج، منقسم إلى شطرين،. فهو مخصي رسمياً ومحكوم عليه أن يعيش في العلن كروح خالص ويلبي في السر رغباته (المواخير، واجهات الجنس، الصديقات، المثلية، البيدوفيليا، التلصصية).

ـ تنظيم صارم شبه عسكري للجنسانية التي ليس غايتها المتعة وإنما التكاثر المحصور في إطار مؤسسة الزواج الذي يستحب أن يكون بين مسيحيين. وحتى وإن أحببت بروتستانتية، والعياذ بالرب، أو يهودية أو مسلمة أو بوذية أو إحيائية، تزوج منها، ليكن، ولكن عليك أن تتعهد بتعميد ذريتك في الكنيسة الكاثوليكية، الرسولية، الرومانية. يحب الشيخ الأطفال إلى حد اختطافهم!

ـ لنذكر أيضاً إدانة المثلية واعتبارها عيبا ونقيصة، وكذا المعاشرة الحرة التي هي فسق وزنى في عرف البابا وأتباعه. فضلاً عن تحريم منع الإنجاب والواقي ـ كأن الصلاة تقينا من الإيدز

وكذا الامتناع عن الممارسة ـ، وتحريم الطلاق ـ إذا اعتدى عليك زوجك ضرباً، تحملي العذاب من أجل حب الرب، وإذا كانت زوجتك شريرة أو وقِحة، تحمّل فإن السماء ستعوضك ـ.

لقد كان البابا عنواناً للنفاق والبهتان عبر التاريخ، كان واحداً من رؤوس الرجعية الأكثر كآبة. لمّا كان ساعده مسلحاً كان مستبداً دموياً إذ قام بمئات المجازر ضد المسلمين (من ١٠٩٨ إلى ١٢٩١ : ٩ حروب صليبية في ظرف قرنين!). أما في الداخل فقد طارد وقتل الهراطقة والمفكرين الأحرار، وأقام محاكم تفتيش ومآدب تعذيب وإعدامات بالحرق... وعلى كل حال لم يفعل بابوات الحروب الصليبية والمحارق سوى تطبيق تعاليم المسيح. ما هذا الضلال والعمى وسوء النية! وإلا كيف يدعي البعض ويزعم أن "المسيح هو الحب"؟ أو أن القوم لم يقرؤوا الأناجيل والتي تقدمه كلها على أنه زارع حقد؟ هل ذاك راجع إلى تكوينهم المبني على رد الفعل الكلاسيكي الذي يؤكد على الحب من أجل إخفاء الحقد الذي يحرق ويخرب قلوبهم: كره اليهود والمسلمين والملحدين وكره كل من ليسوا كاثوليك...

"لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لِأُلْقِيَ سَلاَمَاً عَلَى الأَرْضِ". "مَا جِئْتُ لِأُلْقِيَ سَلاَمَاً بَلْ سَيْفاً"[١].

---

(١) Mat 10:34.

"فَإِنّي جِئْتُ لِأُفَرّقَ الإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ وَالابْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا وَالْكَنَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا"(١).

"وَأَعْدَاءُ الإِنْسَانِ أَهْلُ بَيْتِهِ"(٢).

"إن أولئك الذين يرفضون حكمي فهم أعدائي لذا فاقتلوهم وانحروهم أمامي"(٣).

لقد تفاجأ البعض وأدان لما سمع بأن بينديكتوس السادس عشر ينوي تطويب(٤) البابا بي(٥) الثاني عشر الذي لم ينبس ببنت شفة أمام المجزرة التي كان يرتكبها الألمان أمام عينيه في حق اليهود. أهي إدانة جاهلين أم منافقين: ينسجم موقف بي الثاني عشر تماماً مع تقاليد الكنيسة التي ترتكب المجازر عندما تكون قادرة ولا تتحرك لمنع تذبيح الذين لا يعترفون بسلطتها الدينية والأخلاقية. وما الطيب بينديكتوس السادس عشر الذي يريد اليوم تطويب ذاك البابا المتواطئ مع المجرمين سوى ذلك الرجل الوفي هو أيضاً لمبادئ آلة القتل تلك التي يدير ويوجّه.

---

(١) Mat 10:35.

(٢) Mat 10:36.

(٣) Luc, 12, 25, 53.

(٤) اعتبار السلطة الباباوية احد الأموات في رتبة السعداء أو الأبرار وهي مقدمة لرتبة القداسة.

(٥) Pie XII.

" نقرأ في عقيدة الكنيسة الكاثوليكية أن يسوع المسيح كثيراً ما تحدث عن "جهنم"، عن تلك "النار التي لا تخمد أبداً" والتي يكون حطبها من يرفضون حتى آخر حياتهم الإيمان والاهتداء والذين يمكن أن يضلوا جسدياً وروحياً. أعلن المسيح بشكل مهيب بأنه "سيبعث بملائكته للقبض على مرتكبي الآثام وليرمى بهم في صهد اللهيب". وقد أصدر يسوع حكمه قائلاً: "أيها المنبوذون، اذهبوا بعيداً عني، إلى نار خالدة". ويؤكد التعليم الكنسي وجود الجحيم وأبديته. وتلك هي النتيجة التي يخلص إليها كتاب التعليم الديني المسيحي.

عذابات وآلام مؤبدة في الآخرة، دعوات إلى القتل وقتل فعلي، اضطهاد جسدي وأخلاقي ورمزي في الدنيا: ذلك هو تاريخ الكاثوليكية وهو التعبير الدموي الأمثل الذي يفضح جوهر كل رسالة "ربانية". وفي الواقع لا فصل بين التوحيد والعنف إذ كل ديانة تزعم أنها منزلة فهي تعتبر نفسها فريدة ولذا فلا تسمح أبداً لديانة أخرى أن تدعي أنها ذات مصدر إلهي بالقدر نفسه. ولا تسمح أن يعارضها ذوو العقول الحرة، وعلى ذلك ينبغي القضاء عليهم. ولا بأس إن قتل خلال المذابح أناس شرفاء، فالرب قادر على التعرّف على عباده الطائعين.

معاداة العقل: مهنة الكنيسة

هل خفّت حدّة حبّ القتال والحرب لدى البابويّين؟ وهل تغيّرت الكنيسة؟ وإن أعادوا السيف إلى غمده وتظاهروا ببعض "اهتمام بالآخر" وبـ "حبهم للفقراء" وعلى الخصوص أولئك الذين يعيشون في مناطق وثنية، فإنهم يحاولون دائما تنصيرهم ولكن ليس بضربات العصا، وإنّما عن طريق توزيع الحلوى والملابس المستعملة.

ولئن لم يعد للكنيسة جيش بالمعنى العسكري، فإنّها تملك جيشاً آخر يجعلها أكثر خطورة وإيذاء: كل هؤلاء الرجال الذين يرتدون اللّباس الكهنوتي أو الذين لا يرتدون. وكل النساء المتحجّبات وغير المتحجّبات. وكلّ هؤلاء الذين نعتبرهم لائكيين: معلمو توراة وإنجيل، سيدات يرأسن منظّمات خيرية، مسؤولون في حركات شبابيّة، منشطون اجتماعيون وغيرهم.. واختصاراً فهذه الفيروسات التي تعفّن الجسم الاجتماعي وتنشر العدوى بين الذين يعاشرونها تعبّئهم بأفكار سرعان ما تسقطهم في

استلاب. وعلى رغم تبجّحهم بحبّ كلّ الناس فهم من أشدّ أعداء الجنس البشري.

يعتبر خدّام المسيح بمختلف مراكزهم ونحلهم أكثر خطورة حينما لا يستعملون السيف ولا يرهبون أتباعهم. فمَن مِن الكهان يهدّد اليوم رعايا كنيسته بنار جهنّم؟ بصرف النظر عن بعض المتخلّفين، بعض غربان السوء الذين ما زالوا يلتحفون السواد، فإنّ أغلبية وكلاء البابا يُظهرون وجوها إنسانية بل وجوها جذابة ومتعاطفة مع الغير. فهم مستعدّون دوما لإعانة الآخرين والاستماع إليهم وفهمهم وتطييب قلوبهم. ولكنّهم، مع ذلك، يتكلّمون كي لا يقولوا شيئاً كقولهم "الله كريم وسيعوضك أضعاف الأضعاف"، أو يطمئنون "الخَطّاء" مؤكدين له أنه لا يخطئ وبإمكانه مثلاً أن يعيش دون شعور بالإثم في حالة ما إذا أعاد الزواج. وأنّهم (الخطاؤون) مباركون سرّيا. ولكنهم "ليسوا طيّبين هؤلاء الكهّان الطيّبون" إلا بالقدر الذي يتصرفون فيه بذكاء وأريحية، وحينما ينسون أنهم رجال دين ويضربون بالقواعد الكنسية الرومانية عرض الحائط ويعصون البابا.

وعلى كل حال فإن القس "الجيّد" هو ذلك الذي يتصرف وكأنه ليس قسّاً، وإن بقي كذلك أو ذاك الذي تعب من أداء دور المنافق الذي يفعل ما يمنع ويأمر بما لا يفعل. يصبح طيباً بالفعل

حينما يترك خزعبلاته الدينية جانبا وينضم إلى "البدون" بمعنى جموع الناس الذين يعيشون بدون الإيمان بربّ.

لا يعني شيئاً ذلك الكلام الفارغ الذي يُلاك اليوم عن تجديد الكنيسة وتكيّفها التدريجي مع العالم المعاصر وقبولها واعترافها بالجمهورية اللائكية. فهي ـ ككل ديانة وكلّ إيديولوجية مقتنعة بأنّها تمتلك الحقيقة ـ لا يمكن أن تكون سوى توتاليتارية متعصّبة، غير متسامحة، فلا تستطيع التساهل سوى مع ما لا يمكن منعه. وليس للكنيسة اليوم من طموح غير استعادة ما ضيعته من مكانة وامتيازات، ولكن بانتهاج طريقة أكثر مرونة من ذي قبل ومع الاحتفاظ دائما بنواة "دوغمها" الصلبة.

من العبث محاولة إيجاد تعارض بين يوحنا الثاني "المنفتح" و"التقدمي"، العامر بالحبّ والتفهّم تجاه الإنسانية وبينديكتوس السادس عشر المحافظ الدوغمائي: ككيان وكوظيفة لا يمكن أن يكون البابا سوى محافظا إذ لا يمكن له الترخيص إلا للتافه والزائد عن الحاجة وغير النافع من الأمور والأكثر إزعاجاً ولكن من أجل صون وإثبات القواعد الأساسية للمسيحية والمبادئ التي تعبر عنها والطقوس التي تتمظهر عبرها. لذا فتجديد المسيحية لا يكون إلا بتعطيل نشاطها وباعترافها من على شرفة ساحة القديس بطرس بأنها كانت تأخذ أوهامها على أنها حقائق، وتقر أنها لا تملك أدنى دليل على بنوة الله لذاك ولا على عذرية تلك.

وتعترف أنها كانت تهذي وتتوهّم.. وأنّها كانت تُخرّف وتشعر اليوم بالخجل وتسرع إلى تقديم اعتذاراتها إلى كل الذين خدعتهم والذين باسم أساطيرها نُبذوا وحرقوا واستشهدوا تحت العذاب.

لكن يبدو أن انتظارنا سيكون طويلاً إذ مهما كانت درجة التفتح العقلي لبابا ما، فإن الكنيسة الكاثوليكية ستبقى تؤكد دائماً على أنها وحدها الديانة الحقيقية، وتستمر في عبادة المسيح وتأليهه، وتبقى تزعم أنّ ٣ × ١ = ١، وأنّ ميتا قبل ألفين سنة قد بعث ثم غادر رفقاءه المذهولين وتوارى عبر الأثير، وأنّ عذراء قد أنجبت طفلا وتبخرت مثله، صاعدة إلى السماء أيضاً، وأنّ نعمة قد مست مريدين فغدوا يتكلّمون كل اللّغات دون أن يتعلموها مسبقاً...

ألوهية المسيح، وجود ربّ من ثلاث نسخ ومع ذلك فهو ليس سوى واحد. انبعاث المسيح وارتقاؤه. صعود أمه كولدها دون أن تموت، وتتبخر في الجوّ لتلحق به في السماء. تحوّل قطعة خبز إلى جسد المسيح بمجرد أن يتلفظ الكاهن بجملة سحرية...تلك هي السخافات التي يرتكز عليها "الدوغم" المسيحي الثابت وهي باقية مهما كانت شخصية البابا.

وفي الحقيقة لا يكون الأمر خطيراً إذا ما اقتصر على أقلية من المتوهمين والهائجين أو الحمقى، إذ بعضهم يتخيل أنّه يدير

الطاولات ويتواصل مع الموتى ولا يؤثر ذلك على سير العالم الطبيعي في شيء. ولكن ألاعيب الكنيسة أخطر: لقد ناورت جيداً وفرضت نفسها جيداً مستعملة أسلحتها و"فخفختها" وعطاياها، كما يؤمن بهذياناتها ملايين البشر، بل وحتى وسائل إعلام بلد لائكي كفرنسا، تعتبر ذلك حقائق وتتحدّث عنها كما لو أنها كانت أحداثا واقعية مثلما يحدث مع خرافة "ظهور العذراء في لورد"(١).

يستعمل خدام الكنيسة الأوفياء كلّ شيء وكلّ شيء مباح بالنسبة لهؤلاء الراكعين أمام السلطات الدينية والسياسية، والذين ما فتئوا يوحون أنّ الصراط المسيحي هو الأفضل قطعاً أو على الأقل من بين أحسن الطرق المحققة لذات الفرد والمخفّفة عن كروب الإنسانية وآلامها.

تراهم يطلقون على الأخت إمانوييل وابلاً من الثناء. "تطويب لائكي" لامرأة فعلت الخير في كل مكان مرت به فعلاً، بيد أن لا معلق قد تساءل لا عن الدوافع الأولى ولا الأخيرة لسلوكها والتي هي في نهاية الأمر دوافع لا تمت إلى الدين بصلة. سلوك نرجسي، متباهٍ ومتسلط لا يمكن رده بَداهة إلى عواطف أو

---

(١) Lourdes.

أحاسيس طيبة. هل يمكن أن نتخبط في الوحل ووسط القاذورات مدة عشرين سنة مدفوعين بفكرة الرحمة فقط؟

هل تساءل أحدهم عن جدوى البر والإحسان والإشارة إلى عدم فاعلية ذلك وأنه مجرد تضليل لا يمكن أن يكون بأية حال من الأحوال بديلاً عن العدالة الاجتماعية. مدينة الصفيح في القاهرة لا زالت قائمة ولم ولن يفيد في شيء التزام عابر ومحدود لشخص مهما كان وزنه. ولا يزال المحرومون من حق السكن في العراء بل التحق بهم آخرون بالآلاف! مشردون قد ندد ببؤسهم ذلك النجم الإعلامي الآخر منذ ١٩٥٤، الأب بيار!

إن الإيحاء بأن خلاص الإنسانية لا يمكن أن يتحقق دون وساطة "الأبطال" و"ابن الله" بالأمس، ثم "القديسين" الذين لحقوا به في "السماء"، والمطوَبين الذين يلحقون بهم: هؤلاء الرجال والنساء الذين يعيشون كـ "قديسين"... ليس ذلك سوى خداع للمواطنين وتضليل ذلك التنويه بالعمل الفردي على حساب النضال الجماعي واستبدال للسياسة بالأخلاق.

إن وضع شخصيات خارجة عن المألوف في الواجهة وتقديمها كقدوة يجب الاحتذاء بها، الدفع إلى الحلم أو الخوف، تأجيج العواطف، التعليل بالأماني الباطلة، تشجيع كل ما من شأنه تنويم الحذر.. تلك أساليب عمل الكنيسة الثابتة.

لا تترك الكنيسة وسيلة إلا واستغلتها في إدامة هذيان تابعيها: قصص الخوارق، خطب وعظية ملتهبة، مراسيم قداس مشهدية تحضر فيها آلة الأرغن والجوقة، دون أن ننسى تلك الفخفخة في الأثواب المذهبة، وكذلك روائح البخور والرش بالماء المبارك. ويكون كل ذلك مرفقا بصيغ لفظية غير مفهومة بالنسبة لكل إنسان ذي حس سليم، فضلا عن إقامة السهرات والذهاب إلى الحجّ مشيا..وتجميع مهيب للجماهير الهاذية.

لقد قامت الكنيسة بفعل كل شيء ومنذ ألفي سنة من أجل تعتيه المؤمنين وإثارة إعجابهم وأحيانا هلعهم أو خلب عقولهم وحشو عقولهم بالأوهام والخرافات بغية تعطيل عقولهم والوقوف حائلا بينهم وبين التفكير. إنّ عرقلة العقل وإعادة النظر في مصداقيته بشكل مستمرّ، واغتيال الذكاء هي بلا أدنى شكّ أخطر محاولة اعتداء ضد الإنسان. إنّه تعدٍّ متواصل.

أكذوبة الحرية المسيحية

منذ الزمن الذي كان فيه رابلييه يشرّح الجثث مع طلبته خفية وحتى أيامنا هذه التي تحاول فيها الكنيسة منع نوع معين من البحوث والتجارب العلمية (مثل الحمل عن طريق واهب المني، استنساخ الإنسان الخ)، يبقى النشاط العقلاني تحت المراقبة وموضع اشتباه وإدانة كلما تجرأ على إعادة النظر في عقائد الكنيسة الدوغمائية وحاول الإشارة إلى لامعقوليتها. نشأت العلوم رغم أنف الكنيسة ولم تتطور إلا ضد إرادتها إذ لم تكن ترى في أكبر الباحثين مثل كوبرنيكوس غاليلو داروين وفرويد سوى أولياء شيطان رجيم.

لم يسلم حتى الكتاب والفلاسفة وأهل الفن من صواعق الكنيسة إذ هي لا تتحرز من البحوث العلمية فحسب وإنما تراقب الإبداعات الثقافية عن قرب وتدينها في أغلب الأحيان.

هل انعدم كل وجود لقائمة الكتب المحرمة؟ لئن كانت

الكنيسة قد أنشأتها سنة ١٥٥٧ وألغتها في وقت متأخر جداً أي في سنة ١٩٦٦، فإن كتاب دان براون "داغنشي كود" قد وضع في فهرس المحرمات المكتوبة في ٢٠٠٥! يجب أن نتذكر أن الكنيسة قد ضاقت ذرعا بأهم الأعمال الإبداعية خلال أربعة قرون: أعمال الفلاسفة طبعا - ديكارت، كانط، سبينوزا، شوبنهاور، نيتشه، سارتر.. - وكذلك أعمال الأدباء، من رابلييه إلى لافونتان، ومن ستندال إلى بالزاك، هوغو، فلوبير، أناتول فرانس، جيد..، ألم تضع الكنيسة في فهرس محرماتها من الكتاب ٣٠٠٠ ومن الكتب ٥٠٠٠، من ١٦٠٠ إلى ١٩٦٦؟

"ابتعدوا عن رجال العلم، لا تنصتوا إلى ما يقول الفلاسفة، لا تقرؤوا الروائيين ولا كتاب المقالات". تلك هي الأوامر التي ما فتأت توجهها الكنيسة الكاثوليكية إلى كل الذين يتبعون تعاليمها. هدفها الأمثل: تحويل البشر إلى أغبياء. كلما شحت معلوماتهم قل تفكيرهم وأطاعوا "كلمة الرب"، وكلما اقتنعوا طواعية بالخرافات التي يطعنهم بها الكهنة.

لئن تمرد كاثوليكيون وخاطروا بالإبحار في "مقال في الطريقة" ووجدوا لذة دون شك في قراءة "التربية العاطفية" أو "وإذا لم تمت البذرة؟" فمع ذلك قد ترسّخت نواهِ وممنوعات الكنيسة في أذهان الناس وانتقلت من جيل إلى جيل وذلك من كثرة ما رددت لفظا وفرضت عنوة طيلة ٤٠٠ سنة. واليوم لم تعد

أحكام الكنيسة ذات وزن فيما يتعلق بالإنتاج الثقافي كالأدب والفلسفة، إذ لم يعد أحد يعيرها أدنى اهتمام. ولكن يحاول أهل الكنيسة خفية نزع الصدقية عن أهم وأنبل نشاط إنساني على الإطلاق: القدرة على التفكير العقلاني. لا يزال ثقل الدين مؤثراً على الأذهان، فلم تنقطع المسيحية على نشر الأفكار المسبقة والدعوة إلى قوالب جاهزة في العيش، أصابت عقول الكثير من الناس بالشلل وحرمتهم من نعمة أدنى شكل من أشكال العقل النقدي.

يشعر ملايين من الرجال والنساء، اليوم والبارحة، أن لا حق لهم في التفكير حينما يتعلق الأمر بمواضيع معينة أو على الأقل هم يعتقدون ذلك. لماذا نجهد أنفسنا في محاولة فك شفرة التاريخ الطويل للكون؟ لندع داروين في أوهامه، فليس الإنسان ابن عم القرد، بل الرب هو خالقه. وهو ما يتعلمه الطلاب الأمريكيون في بعض الجامعات التي تمنع تدريس الداروينية وتستبدلها بنظرية الخلق. لماذا التساؤل حول الإجهاض، منع الحمل، الموت الرحيم، تحريم الطلاق، والحرية الجنسية؟ يملك المسيحيون الجواب مسبقا، لقد قدمت لهم المسيحية الحل: "لا لكل هذا، هذا حرام، إن الأمر هكذا، لا داعي لطرح الموضوع".

لقد لوّث الفكر المسيحي الجاهز أحكام حتى اللاأدريين وغير المؤمنين وبتنا نرى أوروبيين يعتقدون مثلاً أن الإسلام أقل تطوراً

من المسيحية بل ويُبدون تعجرفا حيال المسلمين، هذا إن لم يحتقرونهم! والبعض الآخر لا يقبل الزواج بين ذوي الديانات أو الإثنيات المختلفة إلا على مضض. لا تروق أبداً للحماة الكاثوليكية والحمو الكاثوليكي الأبيض زوجة ابنهما إن كانت سمراء ولا زوج ابنتهما إن كان عربيا أو يهوديا. لا غرابة أن يرفض آباء وأمهات استقبال أصدقاء أبنائهم المثليين! ونساء يترددن في الإجهاض ومراهقون يشعرون بالإثم حينما يتمتعون ويشبعون رغباتهم الجنسية عن طريق الاستمناء!

وثوقيون وأصحاب عقول عطلتها قيم عتيقة وأفكار مسبقة. لقد فقد الكثير من الكاثوليكيين القدرة على التساؤل، والنظر بموضوعية لهذه الاعتقادات وفحصها وتقييمها من خارج المنظومة المسيحية. والأدهى والأمر أنهم لا ينظرون إلى الممنوعات على أنها ممنوعات تعطلهم بل ولا يشكون لحظة واحدة في حماقة الحقائق التي يُقصفون بها ولا يرتابون في طابعها "المنزّل" أو الموحى به. لقد هضموها واستبطنوها وغدت خارجة عن كل نقد أو استفهام. كمثل ذاك المهندس الذي يُخضع كل الإجراءات التي يقوم بها أثناء عمله إلى مبادئ العقل ولكنه لا يشعر أنه أصبح شخصاً آخر تماماً حينما يجثو ويبلع خبز الذبيحة في الكنيسة يوم الأحد ولا يشعر أنه طلق العقل وتركه معلقا كالقبعة في مدخل المعبد وأنه انخرط في اعتقادات كانت قد بدت له مضحكة وربما

لكان انفجر ضحكاً لو كان في كامل صفائه العقلي. ولئن كان في مكتبه متيقناً أن ٣ × ١ = ٣، فإنه يقسم جازماً في الكنيسة أن ٣ × ١ = ١ ولا يضحك من سلوكه أبداً ولا يقول مثلاً: "و لكن أنا مجنون!" مع أنه كذلك وبجدارة.

جنون عذب؟ ربما ينطبق ذلك على صديقنا المهندس فهو لا يقلق أحداً في حالته ولكن يصبح الأمر خطيراً عندما يحاول الفرد ضبط حياته وحياة الآخرين، كأن يضبط حياة أولاده مثلاً على إيقاع تعاليم الكنيسة. لا تكتفي الكنيسة باقتراح وتقديم اعتقادات لا معقولة للمؤمنين وإنما تحاول تطويق الحياة الأخلاقية وجنسانية تابعيها في شبكة من الممنوعات بغية "تهذيب" أو بالأحرى خنق كل ما هو متعلق بالدوافع والرغبات والأحاسيس وكل ما هو منبع للحياة، وبالتالي تعطيل كل انبثاق للحرية أو التمرد.

ولكن تبقى الليبيدو العدو اللدود للمسيحية لأنها هي أساس كل نشاط ذهني، فهي التي بتغيرها تطوّر وتثير فضولية الفرد حول نفسه أولاً، حول جسد الأم، ثم الأب، اكتشاف أحاسيس أخرى، رغبات جديدة، وفي النهاية ينمو فضول التفكير والمعرفة.

الإنسانية كل متكامل، فإن قمع أحدهم حب الإطلاع الأوَلي لدى الفرد ـ شهوانيته، ونزعته العشقية ـ فإنه يعاقب، يعيق ويعرقل بل يوقف كل فضول آخر بشكل عام ويجعله سلوكاً آثماً. ومن هنا

يقضي على هذا الفضول ويزيله. وهكذا تبقى علاقة المراهق بجسده ونزواته الجنسية في توتر دائم بسبب تلوث نفسيته بالأخلاق الكاثوليكية وحيرته وهو معتقل بين أغلال محرماتها. إذ هو يرغب أن يعرف وذلك تابو في مثل هذه الأمور، ومن ثمة فهو لا يطرح أسئلة للاستفسار أو ربما يستعلم سراً ثم يشعر بالذنب إثر ذلك (كم من المراهقين يتطرقون لموضوع الجنس مع أوليائهم؟). يريد المراهق أن يجرب ولكن ذلك في عرف المحيط "أذى"، وهكذا يعيش المسكين تمزقا. فكل كاثوليكي "صالح"، يحترم تعاليم الكنيسة الرومانية بحذافيرها لا يمكن أن يكون إلا مضطربا بسيكولوجيا. وأفصح الأمثلة ما نراه في مثال القساوسة إذ هم مرغمون على العيش في عزوبية وقد نذروا أنفسهم للعيش في عفة وكان ذلك غالباً زمن حماسة تعيينهم وهم مقتنعون أنهم سوف لا يعانون من الحرمان الجنسي. ولكن مع مرور الأيام يكتشفون رويداً رويداً مدى هول البتر والتمزق المسلطين عليهم وبموافقتهم! ونراهم يعترفون أمام الصحفية مونيك هيبار صاحبة تحقيق مهم جداً حول رجال الدين اليوم[١]. ويضع التحقيق اليد على موضوع الحب المستحيل والعلاقات السرية والشعور بالوحدة

---

(١) Monique Hébrard, prêtres, enquête sur le clergé d'aujourd'hui, Buchet-Chastel, 2008.

العاطفية والانخراط في أعمال ومهمات لا تنتهي بحثاً عن إرهاق النفس من أجل "النسيان". ولئن انتهى أكثرهم جرأة وحلماً وصفاء إلى قطع التزامهم بالمؤسسة الكنسية نهائيا، يعيش في جحيم متواصل كل المترددين الذين يقطعون ثم يعودون أكثر من مرة.

ليس على هذه الأرض ما يستحق الحياة

لا ينبغي أن يُعمل المرء عقله وإن فعل فلا يجب آن يتمادى في التفكير، عليه أن يقبل دون تمرد كل مآسي العالم ـ العبودية، الاستعمار... ـ لأن الرب كبير ولا نعلم مقاصد جلالته. ينبغي على المؤمن المسيحي أن يلجم رغباته وأهواءه ويقتنع أن الحياة على هذه الأرض ما هي إلا ممر، لا غير: ككل الديانات الأخرى، الكاثوليكية هي أساسا دين مميت للجسد والعقل والرغبات.

أن يكون لهذا الدين الصليب كرمز، وأن يعلق على جدران المدارس المسيحية، ليراه الجميع، تمثال مسيح مصلوب يقطر دما، وأن تجد في أرياف البلدان المسيحية تمثالا لهذا المسيح المصلوب في كل مفترق طرق، وأن يقترح الشهداء أمثلة ليعجب بهم المؤمنون ويحتذون.. كل هذا وذاك من الأمور يذكر المؤمن أن الحياة على وجه هذه الأرض تعني الألم والشقاء، وقهر للنفس، وتكفير وصلب رمزي للمسيح.. وكل الكروب التي يجب على الإنسان قبولها بكل صغار وتذلل دون أن ينسى أبداً آن

"المسيح قد مات من أجله". وأما الملذات والأفراح والسعادة.. فهي كلها أمور مشبوهة سلفا أو متغاض عنها على أحسن تقدير لأنها تعين البشر على التنفس قليلا ليستردوا أنفاسهم قبل أن يعودوا لحياة الألم من جديد. إن مقت الحياة والحقد عليها وتجريدها مبدئيا من كل قيمة هي برنامج مسطر لكل حياة مسيحية إذ أن "الحياة الحق" هي في مكان آخر إلى جانب يسوع المسيح الذي سيلحق به المؤمنون في الجنة حيث يفوزون بالسعادة الأبدية. تلك السعادة التي ينبغي أن يكون بها المؤمن جديرا، أن يستأهلها. جدارة واستحقاق لا يأتيان إلا عبر احترام صارم لوصايا وتعاليم الكنيسة بل وحتى زيادة ما لا يلزم.

منذ بضع سنوات خلت كان ينصح بعض القساوسة الأطفال أن يقوموا بـ "تضحية صغيرة" كل يوم، تتمثل في حرمان أنفسهم من تفاحة أو قطعة حلوى! وليس من أجل التبرع بذلك للفقراء وإنما لـ "تطييب خاطر يسوع المسيح". وكهان آخرون ينصحون الزوجة الشقية، سيئة الحظ، أن تكون صبورة وشُجاعة وأن تتحمل زوجها على أمل أن يعود في يوم من الأيام إلى السلوك المستقيم. لعل وعسى! ودون أن ننسى طريقة عيش تلك الراهبات اللواتي يقمن ليلا لحضور قداس، وهؤلاء الرهبان الذين يجلدون أنفسهم يوم الجمعة حتى تسيل دماؤهم. وأولائك القساوسة الذين

يلبسون مسحا ليكفروا عن ذنوبهم أو بغية قهر النفس وسحق رغباتها.

عصاب وتلذذ بالعذاب من كل صنف.. تلك هي ضريبة الفوز بالجنة الموعودة فكل عذاب يهون أمام التوق إلى النعيم الأبدي إذ من يرغب أن يحيا "الحياة الحقّة" فعليه أن يضحي بحياته الحالية في هذه الدنيا. تألموا وتعذبوا.. ذلك هو شعار الكنيسة المسيحية. وما لا يدعو للبهجة والفرح حقا هو اعتماد الكنيسة على نواة عقيدتها الأساسية واستغلالها في نشر فولكلور كامل، تارة من أجل إسالة لعاب المؤمنين وبهدف ترهيبهم تارة أخرى. تروّج الكنيسة لفكرة وجود أهل الشر وأهل الخير في عالم الأرواح وكذا في عالم البشر. فالملائكة خيرون مثلاً وهم الذين يلعبون دور الوسيط بين الله والإنسان. فلكل إنسان ملاكه الذي يسهر على سلامته، يرشده ويقف إلى جانبه في مواجهة كل محن الحياة. قبل ثلاثين أو أربعين سنة خلت، وقبل أن تنتشر الحاسبات وغيرها من الآلات المعطلة للتفكير، كان كل المسيحيين الصغار يعتقدون بأنهم تحت رعاية ملاك وكثيراً ما يتوسلون إليه لمساعدتهم في حل المسائل الحسابية والرياضية المستعصية!

هل تلك تصرفات صبيانية؟ إطلاقا: "لكل فرد ومهما كان تواضعه الاجتماعي ملائكة تسهر على سلامته، يصرح البابا بي الـ١٢، وهم أمجاد، طُهّرُ، بديعون، وُهبوا لكم ليكونوا رفقاء

دربكم، كما كُلّفوا بالسهر بعناية على حياتكم. وكل واحد منا، يزايد جون الـ ٢٣، له الملاك الشخصي الذي يحرسه والذي بإمكانه أن يتحدث معه ومع الملائكة الذين يحرسون الآخرين أيضاً".

وكما يوجد أيضاً "الأولياء المقدسون" الذين يقدمون لنا الطريق المثلى في الحياة ويسهرون على حياتنا ويشفعون لنا أمام "الرب الكريم". وهناك أيضاً هؤلاء الأتقياء الذين هم في الجنة ينعمون ـ آباؤنا وأجدادنا ـ والذين يروننا من "السماوات العلى"، يرافقوننا، ويزوروننا حتى أثناء الليل أحيانا من أجل تطييب خواطرنا".

أبداً، فالمؤمن ليس وحيداً، محصوراً بين عقائد جامدة، وإنما يعيش حياة كاملة غير مرئية إذ تنتشر وتحيط به كائنات عجيبة. يحتفل بذكراها باستمرار، وتحيطه برفقها وعطفها وتستجيب لدعواته وصلواته.

إن المؤمن محتاج إلى رعاية تلك الكائنات الطيبة خاصة وأن الأرواح الشريرة تطوف من حوله، كالموتى المحترقة عظامهم في لهيب جهنم الخالدين فيها أبد الدهر، وكذلك الشيطان الرجيم الذي يزين له الشهوات ويدفعه إلى الوقوع في الحرام. وقد يسكن الشيطان كائنا ويحاول كاهن متخصص في طرد العفاريت إنقاذه

وتحريره عن طريق التلفظ بالعبارات السحرية والرش بالماء المبارك. وهكذا فكل شيء مصمم كي يعيش المؤمن الحقيقي صاحب اليقين والمرتبط بعلاقة دائمة مع الأبدية الإلهية (عن طريق الطقوس والصلوات) هنا على الأرض ومن الآن "حياة مستقيمة". حياة التواضع والخضوع التي ترمز إليها حركات الورع التي يقوم بها.(كطأطأة الرأس أو إخفاء الشعر بحجاب، نزع القبعة، رش الجسد بالماء المبارك، ورسم إشارة الصليب والركوع والقيام). كل شيء مبرمج كيلا تتسل على الخصوص إلى فكر هذا البائس الذي أنهكته تلك الحركات البهلوانية الفكرة الطائشة التي يتساءل بموجبها عن مدى صدق هذه الاعتقادات والممارسات المتعارضة تماماً مع العقل.

هل تابت الكنيسة فعلا؟

هل هي محاكمة زمن قد مضى ومات، محاكمة منشأة تبدو أنها في طريق الزوال؟ يقتنع بعض الناس بذلك ويبدو أن الإحصائيات تؤكد ما يذهبون إليه: لئن صرح ٦٥ بالمائة من الفرنسيين إنهم كاثوليك فأقل من ٥ بالمائة منهم يذهبون إلى الكنيسة مرة على الأقل في الشهر. و٢٠ بالمائة فقط من الأطفال يترددون على التعليم الكنسي. ومن هنا جهل الكثير من المراهقين للمسيحية إذ لا يفرقون بين خميس الصعود وعيد صعود العذراء. ويعتبرون الملوك الثلاث المجوس وفطيرة رقاقهم كصانعي حلويات. وعيد الفصح يعتبرونه احتفال البيضة. أما الثالوث الأقدس فما هو في تصورهم سوى محطة من محطات مترو الأنفاق. لا ينذر نفسه لمهنة الكهانة إلا القليل من الشبان، ولم تعد للمدارس الإكليريكية أية جاذبية. ولا تتمتع كثير من الكنائس على خدمات رجل دين وهو الأمر الذي أرغم الكنيسة في فرنسا

إلى اللجوء إلى استيراد أكثر من ١٠٠٠ من القساوسة من آسيا وإفريقيا.

ولئن كانت المدرسة الكاثوليكية ناجحة وتجذب التلاميذ إذ يرتادها أكثر من مليوني تلميذ وتلميذة فضلا عن وجود كثير من الراغبين في الالتحاق على قوائم انتظار طويلة جداً، ففقط ١٢ بالمائة من الأولياء يختارون هذه المدرسة الكاثوليكية لأسباب دينية.

بكل تأكيد تتأسف الكنيسة وتتألم من انحدار مستوى الممارسة الدينية ولكنها على العموم تتأقلم مع هذا الوضع بشكل جيد نسبيا. ولو أن الفاتيكان لا ينقطع أبداً على التذكير بالأخلاق المسيحية. وهكذا يعزز مواقف أولائك المستعدين كليا لفرض احترام هذه التعاليم الأخلاقية في مجال نشاطاتهم المهنية: كمديري المستشفيات الذين يعارضون السماح لفتح مصلحة يمكن أن يتم فيها القطع الإرادي للحمل، وكهؤلاء الأطباء الذين يزيد عددهم يوما بعد يوم والذين يرفضون إجراء عمليات الإجهاض، والممرضات اللواتي يمتنعن متحججات بقناعتهن. والمساعدات الاجتماعيات وأطباء النفس الذين يحثون الشابات الحوامل على "الابتهاج بالأمومة والتفتح من خلالها". فضلاً عن رجال الكومندوس الذين يتدخلون بفظاظة في المصحات التي تتم فيها عمليات إجهاض فيخربون العتاد ويعاملون الأطباء الممارسين بعنف.

يبقى مجال التعليم هو الآخر مجالا خصبا للتدخل الديني، وهو ما تتمناه الكنيسة إذ تعتبر المدرسة قلعة ينبغي احتلالها من جديد، أو على الأقل التسلل إلى داخلها في انتظار ما هو أحسن مستقبلا. وحتى اليوم يبقى التسلل لطيفا إذ يأخذ طريق مطبوعات كاثوليكية وإن كانت محترمة للغاية، فإن كتبها شبه المدرسية التي تستعمل في المؤسسات اللائكية من طرف أبرياء يمكن أن تحول درس اللغة الفرنسية إلى درس في نشر العقيدة الكاثوليكية. وهو ما وقع فعلا في مدرسة متوسطة عمومية في إيسو قرب باريس كما يروي لنا دونيس بيلتييه ورولان بوسديفيكس في موقع "الرد اللائكي"[١]: "في دراسته لنص توراتي اعتمد أستاذ الفرنسية مع تلامذة السنة الأولى إكمالي على إحدى تلك المطبوعات الكاثوليكية ليبني عليها درسه في الصرف فاستعمل التمارين التي تقدمها له المطبوعة" مثلاً:

التمرين الأول: "ضع الأفعال ما بين قوسين في صيغة المضارع: أنت (ينذر) حياتك لخدمة الرب. أنت (يصلي) دائماً. أنتم (ينبذ) الذين لا (يوقر) الرب. يقول الرب: "بنو الإنسان (يكون) في عقاب، (يغرق) الأرض خلال أربعين يوماً". وهكذا يكتب التلميذ: ستنذر حياتك لخدمة الرب. ستنبذون الذين لا

(١) Ecole publique, école laïque, Riposte laïque, n° 42.

يوقرون الرب. ويقول الرب: "سيعاقب بني الإنسان وسأغرق الأرض خلال أربعين يوماً".

ولئن تضمن المضارع بعض شك كإمكانية التملص بما يوحي به. فإن التمرين الثاني جاء بصيغة قطعية لا تحتمل النقاش:

"ضع في صيغة الأمر: تعلم توقير الرب. التعود على الصلاة. تقديم القرابين إلى الرب".

وسيكتب التلميذ: تعلّم توقير الرب. تعوّد على الصلاة. قدّم قرابين إلى الرب.

ولا ينقص سوى أن نعلمه قول آمين! ربما سيكون ذلك موضوع تمرين مستقبلي آخر..."

فلا الأستاذ المعني ولا مدير المدرسة الإكمالية ولا مفتش الأكاديمية، قد أزعجهم هذا التدخل المباغت وغير اللائق تماماً للتعاليم المسيحية في درس النحو، يؤكد دونيس بيلتييه ورولان بوسديفيكس. ولكن لماذا التخفي بين ثنايا كتاب في اللغة الفرنسية؟ أليس من البساطة تجنب المراوغة والتقدم بدون قناع وفي وضح النهار كما هو الحال جار في مقاطعة الألزاس وعمالة الموزيل حيث لا يعمل بقانون ١٩٠٥[١]. وقد يكون من الأحسن أن يكون للدين مكانا علنيا في المدرسة.

---

(١) انظر الملحق: جمهورية ومدرستان؟

منذ سنوات خلت ألح مثقفون ـ من بينهم غير مؤمنين ذوي اتجاه لائكي يبدو هشاً ـ في المطالبة بإدخال دراسة "الحدث الدينية" في البرامج التعليمية. وما المانع؟ ألا يدرس التلاميذ الميثولوجيا اليونانية في سنتهم الأولى إعدادي؟ فلماذا لا يدرسون بنفس الطريقة الميثولوجيا المسيحية؟ أو اليهودية أو الإسلامية؟ وغالباً ما يتولد عن هذه الميثولوجيات أيام أعياد (عيد ميلاد يسوع، عيد الفصح، عيد الأضحى...) أو احتفالات رسمية (قداس كنيسة نوتر دام) وإذا كان الناس يعيشون في مجتمع مسكون بالأساطير، فمن أبسط الأشياء أن يتعرفوا على هذه الأساطير وأن يفهموها.

ولكن تعليم هذه الديانات هو الذي يطرح إشكالا بطبيعة الحال وهنا يكمن ضعف هذا الاقتراح المتعلق بإدخال الدين إلى المدرسة لسبب بسيط هو أن هذه الديانات لا تعتبر نفسها أساطير. والسؤال المطروح الآخر هو ذلك المتعلق بالأستاذة الذين يكلفون بتدريس هذه المادة؟ أيكونوا لا أدريين أم مؤمنين؟ وما هدف تعليم المادة وفي أية لغة يجب أن تدرس؟ ما هي الأجوبة التي يمكن أن تقدم عن أسئلة قد يطرحها التلاميذ حول مدى صحة عودة يسوع إلى الحياة من جديد وكذا عن صحة وجود حوريات يستقبلن المؤمنين في جنة الله؟ أتكون هذه الأسئلة حساسة ومثيرة للجدل إلى درجة جعلت وزير التربية الوطنية يغلق الملف مؤقتاً،

تاركاً الصغار في جهل وسانحاً الفرصة للقساوسة والحاخامات والأئمة "لتنوير" عقول هؤلاء الأبرياء على طريقتهم الخاصة! فضلا عن الصحة العمومية والمدرسة، يوجد الكثير من الميادين التي تتدخل فيها الكنيسة وتهاجم ولكن ليس بطريقة مباشرة ولا حتى على مستوى التراب الفرنسي كله. ولكن لتكن مرتاحة البال من هذه الناحية، فالكاهن ـ الرئيس يعمل من أجل مصالحها وينصب نفسه داعية ومروجا متحمسا لرسالتها. إذ أصبح يتحدث كأي عضو في مجلس المشيخة الرومانية. ألم يصرح أن "الله هو في فكر وقلب كل إنسان".. وإن الله لا يستعبد الإنسان وإنما يحرره"[١]. بل ذهب إلى أكثر من ذلك لما عبر عن قناعته فيما يتعلق بمسألة "التفريق بين الخير والشر إذ اعتبر أنه من المستحيل أن يتمكن المعلم من تعويض الكاهن أو راعي الكنيسة". وهكذا يحث الناس على إرسال فلذات أكبادهم لمزاولة دروس التعاليم المسيحية في الكنائس ليتعلموا التفريق بين ما هو شر وما هو خير!

إنه لمن الجدة والغرابة والاندهاش.. أن يتصرف رئيس جمهورية علمانية تصرفا مثل هذا: وكأنه يستجدي مباركته، أرسل

---

(١) انظر الخطاب الذي ألقاه في العربية السعودية في جريدة ليبيراسيون ليوم ١٦ يناير ٢٠٠٨.

ساركوزي إلى البابا ـ الذي كان قد هنأه على فوزه في الانتخابات الرئاسية ـ رسالة من أربع صفحات ليشرح له فيها برنامجه السياسي المعتمد على ضوء الكنيسة والمعنى الروحي"[١].

فليس للكنيسة من اليوم فصاعداً وقتاً تضيعه في التفكير عن منفذ تتسلل من خلاله لتتدخل في شؤون السياسة الفرنسية: لديها في فرنسا رجل يخدم أهدافها. ولذلك السبب فهي تتدخل على مستويات جديدة وتناور وتتحايل لفرض طابعها. هي ممثلة أحسن تمثيل في البرلمان الأوروبي من طرف جماعات ضغط متزمتة يساندها خوزي مانويل باروزو رئيس المفوضية الأوربية، والقريبة من طائفة "عمل الله"[٢] كما يؤكد العارفون بخبايا هذا البرلمان، وهكذا أصبحت الكنيسة تتدخل في إعداد وصياغة عدد لا يستهان به من النصوص التقنية والملموسة للغاية.

وتتحدث إيف شاران في أسبوعية ماريان[٣] عن أحد تلك النصوص التي تتوخى حماية المواطنين الأوروبيين من آفة التمييز في كل أشكاله سواء "أكان بسبب السن أو الإعاقة أو الاختيار الجنساني أو الدين أو القناعات مهما كانت". تبدو المبادرة من

---

(١) Libération , "L'inquiétant pacte du Vatican", 2 janvier 2008.

(٢) Opus Dei.

(٣) Eve Charrin, "Un parlement truffé de dévots", 13-19 septembre 2009.

أروع ما يكون ولكن ظاهريا فقط إذ أنها تصون على سبيل المثال حرية أي كان في أن تحترم ديانته. ولكن تلاحظ إيف شاران بنباهة أن "الأخطر هو أن بعض أشكال التمييز ستصبح مقبولة رسميا وباسم الحرية الدينية تدقيقا!" وزيادة على ذلك، تتساءل الصحفية فيما إذا كان "ينبغي انطلاقا من هذه التعليمية الأوروبية أن يسمح في المستقبل للبنات ارتداء البوركة في مدارس الجمهورية؟ أو السماح للتلاميذ اليهود المتدينين أن يتغيبوا دائماً أيام السبت؟" وتحيل الكاتبة إلى موقف كاتليخن بويتنوغ النائبة في البرلمان الأوروبي من مجموعة الخضر: "أنا قلقة بعض الشيء من الاستثناء المتوقع بالنسبة للمدارس الدينية. تعني هذه التعليمة مثلاً أنه ستغلق أبواب الجامعات المسيحية أمام طالب مثلي (المثلية)"[١].

بدأ يتكون في البرلمان الأوروبي "نموذج مجتمع متعارض تماماً مع مَثلنا العلماني"، تضيف إيف شاران. ينضوي البابويون المدافعون عن هذا النموذج المجتمعي تحت لواء الحزب الشعبي الأوروبي المنحدر من الحزب الديمقراطي المسيحي والمعزز من لدن النواب البولونيين والبلطيق والسلوفاك ويعملون كما يقول واحد منهم على "إعطاء بعد ديني لأوروبا". ولئن ألحوا دون

---

(١) نفس المرجع السابق.

جدوى لاستحداث مادة في دستور الإتحاد الأوروبي تشير إلى الله، فإنهم يُذكّرون باستمرار بالإرث المسيحي ويناضلون ضد انضمام تركيا إلى الإتحاد الأوروبي ويلتقون كل شهر حول فطور الصباح لتأدية صلاة مسيحية مقامة في حرم البرلمان الأوروبي ذاته"[1].

هل تلك محاولة لإعادة تنصير فرنسا؟ إذا كان يقصد التجديد في الروحانية المسيحية فمن الأكيد أن الأمر ليس كذلك لأنها غائبة في هذا المجتمع مثلها مثل آي شكل آخر من الروحانية. ولكن يتمثل الخطر الأكبر فقط في التعليمات المستوحاة من المتعصبين والتي يمكن إن تضمحل من جرائها حريات أو تصبح عسيرة الممارسة كحرية الإجهاض مثلا. وكأن يصبح اختيار المفكرين في برنامج تعليم البيولوجيا والفلسفة والأدب شيئاً فشيئاً متماشياً مع مواقف الكنيسة. وكأن يفرض التمييز في الحصول على بعض الوظائف إلى درجة يصبح فيها النفاق سيد الموقف وسيتحتم على كل راغب أن يستعرض كاثوليكيته وأن يحضر القداس في الكنيسة يوم الأحد. وكأن تهتم الإدارات بانتماء الموظفين الديني. وهو ما أشار إليه ذلك الخبر الذي نشرته جريدة لوموند في طبعتها المؤرخة يوم ٣ أكتوبر ٢٠٠٨ : "كشف رئيس

---

(١) نفس المرجع السابق.

المجلس الجهوي لمنطقة الرون ـ آلب، الاشتراكي جون جاك كيران يوم الأربعاء ١ أكتوبر، أن مصالحه تلقت يوم ١٦ سبتمبر رسالة إلكترونية رسمية مصدرها الأمن العمومي لمقاطعة الرون تستفسر فيها عما إذا كان من بين المستخدمين الجهويين "عناصر من ديانات غير الديانة المسيحية". بكلمة أخرى، يعتبر المسلمون كعناصر خطرة مسبقا. أما زملاؤهم فهم جميعا مسيحيون ضمنيا في نظر الأمن. وهو أمر فضائحي بامتياز يبشر بشكل جيد بفضائح أخرى قادمة. ماذا يعني مثلاً اعتماد مقياس تمييزي ديني سلبي في بلد كفرنسا يخضع أكثر فأكثر للتعليمات الأوروبية ـ الفاتيكانية: اليوم المسلمون وغدا اليهود من جديد، هم الذين يتم إقصاؤهم من المناصب الأساسية وكذلك البروتستانت من جديد والملاحدة الذين لا يمكن حرقهم بطبيعة الحال ولكن لا ينبغي تكليفهم بتقديم دروس في الفلسفة. فمنذ عشرين سنة عوقب أساتذة فلسفة لعدم امتثالهم الإيديولوجي: لقد سحبت درجة "جيد جداً" من مترشح لأستاذية الفلسفة في الامتحان التطبيقي بسبب استلهامه من الماركسية في تقديمه لدرس يتناول موضوع الحرية. ويبقى البيولوجيون، هم أيضاً، تحت حرية مُراقبة إذ وصل تأثير القوة الخارقة للوبي المدافع عن نظرية الخلق إلى كل البلدان الأوروبية. في إيطاليا حذفت نظرية تطور الأنواع من برامج مرحلة التعليم المتوسط بمرسوم وزاري. وفي ألمانيا تقدم دروس في نظرية خلق

العالم في مادة البيولوجيا. وفي بولونيا وروسيا وهولندا والسويد، يشرح معلمون وبكيفية رسمية كيف خلق الله العالم؟[1] وإذا ما كان هناك تطور للأنواع "فذلك مرده إلى مصمم عظيم القدرة"[2].

أما في فرنسا "فتتعاظم صعوبة تدريس نظرية التطور كل يوم"، كما يلاحظ كثير من رجال العلم. فمن هنا كتب تهدى لأساتذة البيولوجيا ومن هناك دعوات لحضور ملتقيات ومحاضرات وهكذا يضاعف اللوبي المسيحي من تدخلاته ولكن يبقى الخطر أبعد من مسألة "خلق" العالم على كل حال. فإذا قبلنا بذلك الزعم العلمي القائل بوجود كائن مخطط هو خالق العالم، يلاحظ أوليفييه بروصو[3]، فإن الأمر سيغدو سهلا لتدعيم مواقف تشريعية محافظة جداً والسماح بالنظر إلى بعض الاختيارات كالمثلية وتنظيم النسل والإجهاض على أنها سلوكات منحرفة[4].

---

(١) Le Monde, "Le créationnisme étend son influence en Europe.", 18/11/2008.

(٢) نفس المرجع

(٣) الدكتور في البيولوجيا والمؤلف المشارك في ذلك الكتيب الرائع حول دعاة الخلق أو الخلقويين:
Les créationnistes, Ed. Syllepse

(٤) نفس المرجع

إن إقامة منظومة عقلية على المستوى الوطني تدمج مفاهيم الله والعالم المخلوق من عدم كبديهيات، أخلاق مستوحاة من الدين، يؤدي إلى تقسيم السلوك إلى "طبيعي" و"لاأخلاقي" أو "فاسق"، بديهي أن اعتماد مثل هذا المقياس التأويلي يجعل الأساتذة المسلحون بالسلطة يبسطون مراقبتهم على حياة كل الشبان والشابات. وهكذا يفتح المجال رسمياً أمام مطاردة غير المؤمنين. ولا يعتبر صيد الكفرة جديداً ولكن يحتمل أن يحتدم مستقبلاً أكثر فأكثر: ألم نكتشف مؤخراً أن مدونات (الأنترنيت) بعض الأساتذة كانت تحت المراقبة؟

لقد أعلنت وزارة التربية والتعليم العالي عن مناقصات تحت عنوان: "يقظة الرأي العام"(١). وذلك ابتداء من أول يناير ٢٠٠٩ وبقيمة مالية تقدر بـ ٢٢٠٠٠٠ أورو سنويا، وستكون مهمة الشركة الفائزة مراقبة كل وسائل التعبير عن الرأي - "الصحافة المكتوبة، الانترنيت، وسائل الإعلام الالكترونية، مواقع النقابات، المدونات، المناقشات العامة ذات الأهمية على الشبكة العنكبوتية، والصفحات الشخصية"(٢).

وموضوع وهدف هذه المراقبة هو وضع اليد على "زعماء

---

(١) نشرت يوم ٤ نوفمبر ٢٠٠٨ في المذكرة الرسمية للمناقصات العمومية

(٢) Mattieu Maestracci, France info, 13/11/2008.

الرأي العام، والذين يرسلون علامات الإنذار ومحاولة تحليل قدراتهم التأثيرية". إنها متابعة بوليسية للأساتذة؟ أبداً.. يرد مكتب رئيس المنافقين في وزارة التربية الوطنية: "ليست تلك متابعة بوليسية للأساتذة ولكنها محاولة لمعرفة الكيفية التي يتصور من خلالها الأساتذة سياسة وزيرهم بدقة". يا لها من بلاغة ديماغوجية!

ودون انتظار سنة ٢٠٠٩ موعد انطلاق مخططه الرسمي المتعلق بالمراقبة السابق الذكر، بدأ الوزير يراقب كل ما يكتب على الصفحات العنكبوتية، وقد وضع علامة على محتج "خطير" واستدعاه. ويتعلق الأمر بمعلم أو كما نقول اليوم "أستاذ مدارس" يعمل بمدينة كولومبيه، آلان ريفالو الذي ثار في مدونته "مقاومة وبيداغوجيا" ضد "طرق الإصلاح المفروضة على المعلمين دون أدنى تشاور معهم وفي تجاهل تام لاحتياجات المؤسسات التعليمية الحقيقية". استدعي الرجل من قبل مفتش مقاطعته وأيضاً من مفتش الأكاديمية العام وذلك بدعوى التمرد وعدم الامتثال: "موضوع رسالتي هو إعلامكم بأنني لن أساهم في هدم التربية الوطنية. واحتراما لضميري قررت إن لا أطبق الإصلاحات المفروضة وأن أستمر في العمل على ضوء برامج ٢٠٠٢". وهكذا فهو يُدرّس "التربية المدنية" وليس "التوجيه الأخلاقي والمدني". ودون شك فالتوجيه الأخلاقي ليس هو التوجيه الديني.

ولكن الأخلاق التي تلهم هذا التوجيه ليست بطبيعة الحال الأخلاق الأبيقورية ولا هي أخلاق مستوحاة من نيتشه. فلا يمكن أن تكون سوى بديلا للأخلاق الكاثوليكية التي في نفس كل معلم والذي يملك حرية تلوينها إذا ما رغب في ذلك بلون ديني دون أن يحتج أولياء التلاميذ على ذلك.

لا حرية ولا حقوق ولاشيء على الإطلاق مكتسب قطعيا إلى ما لانهاية. ودون أن يكون في حاجة إلى ثورة مضادة صاخبة إذ يمكن جيداً بسلسلة من الإجراءات غير المعلنة أن تنزع منا الواحدة بعد الأخرى، مثل أوراق الخرشوف، حريات كنا قد دفعنا غاليا من أجل اكتسابها. من بينها حرية الفكر، وحرية الاعتقاد أو عدمه. في كل يوم تشرق فيه الشمس تفكك السلطات السياسية المزيد من خدمات القطاع العام (غلق مستشفيات، مكاتب البريد، والضرائب، وإلغاء ألوف مناصب الأساتذة والمعلمين..)، لا شيء يمنعه بعدما استهزأ بمايو ١٩٦٨ وما تركه من عواقب وخيمة حسبه، أو "الإرهاب"، أو "انحطاط الأخلاق"، أو ضرورة حماية الشباب من الموبقات التي تحدق به، من إحياء أو محاولة إحياء تدريجيا "نظام أخلاقي" متطابق مع "قيم" الكنيسة الكاثوليكية والرئيس ـ الكاهن.

المدرسة بيت الداء

ليس من المؤكد تماماً أن تلقى محاولة كهذه مقاومة قوية. لا يمكن إن يقوم أحدهم إلا إذا فهم ما هو التطور (الايدولوجي، السياسي والإجتماعي) الذي يحدث وما هو نمط المجتمع الذي يتم تجسيده، بكلمة أخرى، لا يقاوم امرؤ إلا إذا كان مطلعاً، ومحكماً للعقل ومالكاً لروح نقدية. وهو شيء نادر جداً في أيامنا هذه.

والمدرسة هي المسئولة في المقام الأول عن هذا الخواء إذ تبين كل التقارير وكل الشهادات أنها لم تعد تلقن للتلاميذ ولا تقدم لهم الأدوات النظرية التي تسمح لهم بعدم السقوط ضحايا في شباك محترفي الكذب، بل لم تعد تعلمهم حتى القراءة والكتابة. وهكذا ترمي المدرسة في سوق العمل بأميين مجردين تماماً من العقلانية وبهذا تقدم خدمة جليلة للمشعوذين والظلاميين المبشرين بالمغامرات السعيدة وللذين يضربون خط الرمل ولمروجي الخرافات الإنجيلية وكل أنماط تجار الأوهام.

يبقى كلام حاملي الظلمات مسموعا للغاية إلى درجة لا أحد يجرؤ على إدانة كذبهم وبهتانهم ويطور بهذا حس المواطنين النقدي. إن هذا من مهمات المثقفين في الماضي ولكن بغض النظر عن المتخصصين الذين ينغلقون في مجال اختصاصهم وآخرين تمتنع وسائل الإعلام عن استجوابهم، لم يبق في فرنسا مثقفون.

أين فولتير الذي لم يكف رغم ألوف الأخطار عن الصراع ضد "الدنيء" والدفاع عن الأرملة كالاس، والذي أدان محاكمة القبطان دريفوس الظالمة. وأين أندري جيد الذي ثار ضد الحرب في المغرب واحتلال الكونغو.أين سارتر وو كل الذين وقعوا على بيان الـ١٢١ الذين ساندوا ـ الشبان الهاربين من الجيش الرافضين المشاركة في حرب احتلال استعمارية ـ نعم أين هم الذين ينتفضون اليوم ضد الظلم ويواجهون الأقوياء ويكدون مثل أسلافهم من أجل نشر الأنوار؟

مهما فتحنا عيوننا ودققنا النظر فلن نرى أحداً إطلاقاً. لا بل نرى من لا ننتظر. بدلهم يتبختر في أول الصفوف وتحت الأضواء الكاشفة محتالون، ألهتهم وسائل الإعلام وقربتهم السلطة منها. هؤلاء هم الذين يساهمون في تزييف وعي الناس وتضليلهم. يقدمون أنفسهم كمثقفين وما هم سوى كاريكاتورات. إنهم أبعد ما يكون عن التمرد، كما يقول الفيلسوف ميشال أونفري، إنهم خدم

الأقوياء ومتملقوهم. لا يتوانون في خدمتهم بل بعضهم قبل منصب سفير. ولا تساهم مواقفهم سوى في تعزيز السلطات القائمة. أنصتوا إلى آلان فلكنكروت، ـ هذا المتحجر والذي لم يفقه بعد أن الاستعمار هو نفي للمستعمَر وإنكار لوجوده ـ وهو "يفكر" مثلما كان الحال في الأيام الزاهية للإستعمار قائلا "أن الاستعمار لم يفعل سوى الخير تجاه الأفارقة"(١). أنصتوا إليه وهو يدافع عن أوريانا فالاتشي التي تشتم "أبناء الله" الذين "يتكاثرون كالفئران" في كتابها "السعار والكبرياء"(٢). لم يصدم قط ذلك المدعي بلا حياء أنه يدافع عن الثقافة إذ يكتب: "لأوريانا فالاتشي فضل عظيم هو أنها لا تترك للغير فرصة لإرهابها.. إنها ترغمنا على النظر إلى الواقع كما هو"(٣). وهكذا نرى العرب فئرانا في واقع فلكنكروت.

إن أصدقاءه أكثر حياء منه ولو أنهم يفكرون مثله. لهؤلاء الذين يزعمون "الدفاع عن حقوق الإنسان"، نظرة انتقائية للإنسان الذي ينبغي الدفاع عنه: سيخرجون كل أظافرهم في حالة المساس بشعرة واحدة من شعر إسرائيلي ولكن لا يسمعون

---

(١) Interview au Journal israélien Haaretz.

(٢) Plon 2002.

(٣) Alain Finkielkraut , Le Point, 24 mai 2002.

شيئاً ولا يرون شيئاً ولا يقولون شيئاً حينما يُذبح العرب من طرف الإسرائيليين.

ولئن كان سريعا في التنديد بجرائم الروس والصينيين والكوريين الشماليين، فلا ينبس أندري غلوكسمان ببنت شفة تعاطف، يلاحظ جيلبر أشقر، تجاه ضحايا دول الحلف الأطلسي وأمثالهم كالأكراد والفلسطينيين[١].

يذكرنا إسحاق لاور أن ممثلي "معسكر السلام" ـ كما تصفهم الصحافة الغربية والفرنسية على وجه الخصوص ـ لم يقولوا شيئاً أثناء تذبيح الفلسطينيين في رفح وغزة سنة ٢٠٠٤. ولا قالوا شيئاً أثناء مجازر ٢٠٠٢ في جنين ومدن وقرى أخرى في فلسطين. فكأن مصائب قوم عند قوم فوائد: "ألا تُستغل الإبادة الجماعية لليهود في أوروبا من أجل إنكار ما يتعرض له الفلسطينيون اليوم؟ طبعا نعم"[٢].

ما أغرب هؤلاء "الإنسانيون" الذين يختارون ضحاياهم ويعمون عن رؤية ضحايا الأمريكان. أو كما يسميهم إريك حزان "المفكرين الذين يرتدون الخوذات العسكرية، أصحاب الفلسفة

(١) Gilbert Achcar , Le choc des barbaries, Complexe, 2002.

(٢) Yitzhak Lahor , Le nouveau philosémitisme européen, La Fabrique, 2007.

الجديدة القديمة"[١]. هؤلاء الذين استحسنوا غزو العراق وبالتالي تقتيل مئات الألوف من العراقيين. كاد غلوكسمان أن يصرخ باكيا حينما لاحظ عدم مشاركة فرنسا في الغزو: "خرجت مذهولا حزينا من وزراة الخارجية يوم ٣٠ يناير ٢٠٠٣ في حدود الساعة الثانية والنصف زوالا وأنا أتخيل أن فرنسا ستستعمل كل إمكانياتها وتأثيراتها وصداقاتها وحيلها وكل ما في وسعها فعله من حيل لإيقاف معسكر الولايات المتحدة ومنع كل تدخل عسكري في العراق بل أكثر من ذلك وأمر أي كل تهديد باستعمال القوة"[٢].

أعلنت الحرب وتم احتلال بغداد وابتهج "هؤلاء المثقفون". هتف باسكال بروكنر واندري غلوكسمان ورومان غوبيل: "يا لها من بهجة والمرء يشاهد الشعب العراقي وهو يحتفل بحفاوة بتحريره وبمحرريه"[٣].

يا سلام.. على هؤلاء المدافعين عن حقوق الإنسان والمتمركزين في طليعة النضال من أجل الحرية وضد كل أشكال الظلامية!

مدح للاستعمار والليبرالية الجديدة والعولمة الاقتصادية وتبرير

---

(١) Eric Hazan L.Q.R, La propagande du quotidien, Raison d'agir, 2006.

(٢) Ouest contre Ouest, Hachette littérature, 2004.

(٣) Le Monde 15 avril 2003.

لأفعال الولايات المتحدة والدفاع عن إسرائيل، تلك هي مهمة "كلاب حراسة الرأسمالية الجدد"، هؤلاء البهاليل الذين ينحنون أمام "أقوياء" هذا العالم ويقبلون أحذيتهم بمتعة وشراهة.

حينما يغيب المثقفون يصول المشعوذون ويجولون. وليس المقصود هو خلاء الفضاء الإيديولوجي، ولكن بالعكس هو مفتوح من الآن فصاعداً على كل الرياح. وقد تسللت إليه رياح الجنون وهي تكنسه طولا وعرضا: ارتدى بعضهم جلبابا أصفر اللون ولم يعد يقسم إلا بالبوذا. وآخرون يعبدون الدالاي لاما، قداسة جديدة أخرى. وآخرون يعبثون بحبات سبحاتهم طول النهار أو يستسلمون لكذابي طائفة السيونتولوجيا المحترفين ليخدرونهم بالأوهام أو يسلبونهم كل ما يملكون. والبعض الآخر لا ينهي حجة إلا وبدأ أخرى. وهناك من يبحث عن خلاصه الروحي في دير رهبان أو على ضفاف نهر الغانج. ودون حسبان المئات من الألوف من الكاثوليك المحبين أو الفضوليين الذين يقضون الليل في العراء طمعا في "سعادة" لمح البابا. فضلا عن ذلك الكاتب الذي كان في الماضي يساريا ورجلا يملك الكثير من الحس السليم. والذي اختلطت عليه الأمور اليوم وأصيب بارتباك عقلي واضح إذ أصبح يعتقد أننا "بحاجة إلى الإيمان على الأقل لنكون مواطنين". ـ الملحدون غير مواطنين إذن؟ ـ ويتساءل "كيف

العمل ليبقى العقل النقدي مؤمنا؟" و"كي يخضع الإيمان للنقد[1]". كذا!

أصبح الميدان وبدون أدنى شك، مواتياً لعودة الديني وحتى وإن كان بصورة ممسوخة، يبقى خطيراً على كل حال. ولئن أغوت الطوائف والنحل وفتنت، فإن الكنيسة الكاثوليكية هي المؤهلة والمستعدة أكثر لجذب المترددين والتعساء والقلقين. أي كل الذين يسيء هذا المجتمع معاملتهم ويبحثون عن أسباب للرجاء: للكنيسة الكاثوليكية ورقة رابحة تتمثل في العرف المتناقل جيل بعد جيل، عما يقدمه لها عمرها الطويل من "هيبة وشرف". أليست مرتبطة بتاريخ هذا البلد (فرنسا) منذ اعتناق كلوفيس المسيحية؟ ألا يردّ دائماً أن لفرنسا جذوراً مسيحية وتهدد اليوم هويتها ديانة أخرى؟

ومن البديهي أن الإسلام لا يهدد فرنسا ولا يسعنا سوى أن ننحني إعجابا أمام صبر هؤلاء الآلاف من المسلمين الذين حكم عليهم أن يمارسوا صلواتهم في الأقبية والمرائب عشريات من الزمن ودون أن ينتفضوا أبداً ضد الاحتقار المشين الذي لاقوه من لدن بلد لم يترك وسيلة إذلال إلا وجربها عليهم - تعويضات

---

(١) Jean Claude Guillebaud, "On voit ce qui s'effondre, pas ce qui surgit", Libération, 22-23 novembre 2008.

زهيدة لقدماء المحاربين المسلمين، النفي نحو أحياء موبوءة مثلما كان يفعل مع المصابين بداء الطاعون قديما، وإلى غير ذلك من ضروب التمييز المختلفة ـ.

كيف لعاقل أن يتصور أن ديانة "مواطنين من الدرجة الثانية" يمكن أن تمثل خطراً على بلد "حقوق الإنسان"، في حين أن الواقع يقول أن قوانين وممارسات هذا البلد هي التي لا تهددهم فحسب بل تسئ معاملتهم. يعيش المسلمون الموجودون بفرنسا دينهم بكل هدوء ولكن نظراً لجهل أغلبية الناس والأحكام المسبقة التي تعشش في عقولهم والإعجاب الغربي بالذات المستعد دوما للتعبير عن نفسه، كل هذا يجعل الخطاب المناهض للمسلمين مزدهراً ومؤثراً. في كتاب في غاية الأهمية تحت عنوان "الإسلام المتوهم، البناء الإعلامي للإسلاموفوبيا في فرنسا ١٩٧٥ ـ ٢٠٠٥"، يبيّن توماس ديلتومب الذي عاد إلى أرشيف التلفزيون والإذاعة والصحافة المكتوبة، كيف بنت نظرة الصحفيين ـ الذين هم في الغالب جهلة، وعميان أو مشلولون بالأكليشيهات ـ صورة الإسلام المهيمنة اليوم في فرنسا. "فإن اعتقدوا أنهم يرسمون صورة للإسلام كما هو، لا يفعل الصحفيون في أغلبهم سوى اختيار النسخة التي تتناسب أكثر مع الفكرة التي يحملونها عن هذا الدين": دين كان يعتبر "فولكلورياً" في السبعينيات، واليوم تحول في نظرهم إلى دين يدعو إلى العنف ويدفع إلى ممارسة

الإرهاب، ويهدد الديمقراطية واللائكية ويضعهما في خطر. بينما الواقع أن "الإسلام أكثر علمانية من الديانات الأخرى، كما يلاحظ جاك بيرك، فالإسلام لا يبالغ في التقديس، وليس فيه قربنة، ولا يتجسد فيه المقدس"[١].

ولكن ما عسى العقل أن يفعل أمام الأوهام وكل ضروب الخوف؟

تعصف روح الحروب الصليبية على أوروبا من جديد وفي مواجهة هذا البعبع المختلق الملوح: الإسلام = العنف = الإرهاب = الديكتاتورية، يتذكر الكثيرون أنهم مسيحيون أو كانوا كذلك ويهرعون نحو الكنائس، يجثون ويحتجون ضد بناء المساجد، بينما يبتهج آخرون لأنهم أعادوا اكتشاف إيمان طفولتهم وراحوا يكتبون كتبا ليُعلموا الناس بذلك. وكلها سلوكات تخدم الكنيسة وتسهل عودتها بقوة إلى المجال الاجتماعي. إذن فحضور المسلمين بأعداد كبيرة لا يهدد المسيحية بل يعطيها عنفواناً جديداً وتأثيراً أقوى. ولا يعني ذلك أننا سنعيد تماثيل المسيح المصلوب إلى قاعات الدروس في الإبتدائيات والإكماليات والثانويات، أو إلى وجوب تقديم شهادة التعميد

---

(١) نفس المرجع السابق.

للفوز بمنصب عمل في الوظيف العمومي أو إخلاء مكتبات المدارس الثانوية من النصوص العظيمة لمرحلة الأنوار، وعلى كل حال فاغلب التلاميذ هم غير قادرين حتى على فك رموزها، فكيف لهم أن يفهموها؟ لا يمكن أن نخشى إجراءات من هذا القبيل، على الأقل في هذه المرحلة إذ تعرف الكنيسة فضيلة الصبر والانتظار. لها الأبدية كلها. يكفيها أن تحل اليوم بهدوء ولطف امتثالية فكرية وأخلاقية وتزداد قبضتها شيئاً فشيئاً مع مرور الأيام. وأن يصمت غير المؤمنين خوفا من صدم غيرهم ويبدون بهذا طائفيين. وأن ينشر المثقفون بطريقة مباشرة أو ضمنية تصورها (الكنيسة) للعالم. وأن يؤكد رئيس جمهورية أخيراً وبقوة سمو القيم المسيحية وحضور رب الإنجيل في قلب كل إنسان.

كلام كهذا كان يمكن أن يدفع في الماضي آلاف الديمقراطيين للتظاهر في الشارع. أما اليوم فلا يدهش إلا قليلاً ولا يصدم أحداً. ولكن لماذا الدهشة؟ فإن انتخب نيكولا ساركوزي، كما يلاحظ إيمانويل تود بحق،[١] فليس ذلك رغم كونه ـ منتفخ بذاته، مشبع بالنرجسية، معجب بالأغنياء وكبار هذا العالم، ومحتقر للضعفاء وغير منفتح فكرياً ـ ، بالعكس لأنه على صورة هذا المجتمع

---

(١) Emmanuel Todd, Apres la démocratie, Gallimard, 2008.

الذي لا مكان فيه سوى للمال والعنف والفردية المتفاقمة. ربما سينهض ذات يوم فولتيرات[١] جدد، في وجه "الدنيء" في أوروبا وفي كل بلدان إفريقيا وآسيا التي تعاني اليوم من الديكتاتورية الثيوقراطية. ولكن سوف لا تعود الأنوار إلا إذا ناضل كل منا في مكانه وبطريقته نضالا مستميتا ضد الظلمات التي تكتسحنا اليوم وتعمي أبصار حتى الأكثر بصيرة فينا. فهل يستمر الأمر هكذا لزمن طويل؟

---

(١) جمع فولتير (الفيلسوف).

ملحق ١
هل كلهم مجانين؟

إلى أي مدى من الارتباك العقلي أو الحذر يمكن أن يصل بعض الصحفيين والباحثين ورجال السياسة حينما يتطرقون لموضوع الدين. وبالتالي إلى أي حد يمكن أن يلوث "التدين" السائد ويفسد تفكيرهم؟ يقدم مقال نشر في جريدة لوموند وصفاً رائعاً للأمر[١].

لئن اعتقدت كاتبة المقال أنه من الآن فصاعداً "ستظهر الديانات التي هي اليوم أقليات فضلا على أنها متعددة، غير قادرة على فرض وجهات نظرها على المستوى السياسي والمجتمعي"، فقد خصصت الفقرة الأخيرة من مقالها في الإيعاز إلى أن عدم قدرتها على فرض هيمنتها الإيديولوجية يجعلها تركز جهودها على

(١) Stéphane Le Bars, "Les limites de la laïcité positive", Le Monde, 20 décembre 2008.

التأثير بكل ثقلها على الذهنيات والمؤسسات. ولكن سرعان ما تضيق ستيفاني لوبار من ملاحظتها: ليس الأديان كأديان بطبيعتها هي التي تحاول فرض نفسها، بل لا تعني هذه الرغبة سوى أفراد معينين من أتباعها. أولئك الذين "يفرضون حضورهم القوي في نقاشات المجتمع ليعزفوا لحن "اللائكية الإيجابية" العزيزة على نفس الرئيس ساركوزي". وناسية تحفظها في السطر الموالي مؤكدة أن "كل الديانات على اختلافها (أي القيادات الدينية)، تعمل مثلاً على أن يكون لها كلمة مسموعة في النقاشات المتعلقة بمراجعة القوانين حول البيوطيقا، مذكرة بتصورها الإنتروبولوجي للإنسان".

إذن من الذي يهاجم اللائكية، ويحاول فرض تصوره للعالم، بعض "المؤمنين" أو "القيادات الدينية"؟ لقراء جريدة لوموند التي نشرت مقال ستيفاني لوبار أن يقرروا!

أعرف جيداً ذلك الحذر والاعتدال والتذبذب الذي تشتهر به "الجريدة المسائية الكبرى" ولكنها كثيراً ما خرجت عن ذلك. لقد وقفت لوموند مثلاً بكل وضوح ضد جرائم الجيش الفرنسي في الجزائر. ولكنها تبدو أكثر تحفظا حينما تتطرق للمسائل الدينية.

تنقل الصحفية في مقالها كلاما لباحث يزعم أنه "أصبح من الممكن أن ننظر بعين الاعتبار إلى إسهامات الديانات، الروحية

والتربوية والاجتماعية، دون التنكر للعلمانية"[1]. أو هذا الكلام الذي يقول فيه نيكولا ساركوزي إن "المؤمنين يحملون المعنى في مجتمع لم يعد فيه معنى". وأيضاً هذه الملاحظة التي جاءت على لسان مانوييل فالس، رئيس بلدية إيفري الاشتراكي الذي تثير اهتمامه أسئلة المتدينين. ولا تسجل صحفية لوموند ولو ملاحظة صغيرة تجاه هذا الكلام الزائف.

ما هي تلك "الإسهامات الروحية والتربوية..." لديانات تتعامل مع المؤمنين كأنهم معتوهون أو الذين تجعل منهم سذجا، بتعبئة عقولهم بالخبل، وتجعلهم يعانون من الوساوس (في احترامهم الوسواسي للطقوس أولا ثم استيلاء الوسوسة على كل شخصيتهم)، وتخلق لهم حرمانات ورهابات وهمية وتغذي فيهم شعور بالإثم.. فما أجملها من إسهامات روحية إذن! كيف يمكن ترك كلام ساركوزي التافه يمر دون أدنى رد فعل؟ ما هو ذلك المعنى الذي قد يحمل المؤمنون وإيمانهم يركنهم في لامعنى مطلق، ينمي اللاعقلانية فيهم ويحرمهم من العقل النقدي ويعرِّضهم للجنون (هلوسات سمعية وبصرية، اضطرابات هستيرية ورؤى هاذِية).

(١) Jean-Paul Willaine, Le Retour du religieux dans la sphère publique, Ed. Olivétan.

أما فيما يخص رئيس البلدية مانوييل فالس (وزير الداخلية الفرنسي الحالي)، فما هي الطريقة التي أثارته بها أسئلة المتدينين؟ هل يسمع أصواتا هو الآخر؟

هل أصيب الكل بالجنون؟

من البديهي القول أن صحفية لوموند لا تستطيع التعبير بكل هذا الوضوح ولكنني لست متأكداً تماماً أن الأمر متعلق بالحذر فقط وأن تحفظ جريدتها الدائم هو الذي منعها من رد فعل تجاه تفاهة وخطأ الكلام الذي تنقله وتستشهد به. حينما يتكلم امرؤ اليوم عن الديانات في وسائل الإعلام وغيرها، من الأفضل أن يبدو أكثر دقة وتفهما وتسامحا. وهو طبعا ما يخدم مروجي "الأفيون" ويفصح عن قبضتهم القوية على سلوك معاصرينا.

ملحق ٢
جمهورية واحدة ومدرستان![1]

"حينما دخلت إلى هذه المدرسة أول مرة، منذ عامين ـ كنت أعمل في منطقة باريس سابقاً ـ اعتقدت أنني أخطأت العنوان والمؤسسة"، تقول مونيك.ت، وهي معلمة في قرية قرب سارغومين[2]. "جاثون وملتفون حول شمعة وصورة للعذراء، كان تلاميذ الصف التحضيري الذين تشرف عليهم معلمة دين، يغنون على نغم "بابا نوال الصغير" الشهير: مرحباً أيها المسيح.. في القاعة التي كنت أدرّس فيها كان تمثال المسيح المصلوب معلقاً فوق السبورة. وحينما قمت بنزعه أخبرني مدير المدرسة أن

---

(١) أنجز هذا الروبرتاج منذ ٤ سنوات وكان من المفروض أن ينشر في شهرية لوموند ديبلوماتيك ولكنه كان في كل مرة يؤجل بدعوى ضيق المساحة إلى أن ألغي نشره تماماً.

(٢) Sarreguemines.

ذلك عادة وعرف وأعاد تعليقه في مكانه من جديد. أمام إصراري وإلحاحي في رفض الأمر، هددني باستدعائي من طرف رئيس البلدية وبسخط أولياء التلاميذ". "وفيما بعد توصلت إلى العثور على ذلك النص الذي يتكئ عليه هذا "العرف" : إنها تعليمة ألمانية صادرة سنة ١٨٧٣، تؤكد بالإضافة إلى تمثال المسيح المصلوب، ينبغي أن تكون معلقة في كل قاعة درس صورة للعذراء وصورة شخصية للإمبراطورة أوجيني".

كتمثال المسيح المصلوب، اختفت العذراء والإمبراطورة منذ زمن طويل من المدارس الثانوية ولكن يبقى المسيح المصلوب في نفس المكان منذ أكثر من قرن في بعض المدارس التكميلية وفي مدارس ابتدائية كثيرة في الريف.

في ١٥ من شهر جولية سنة ١٨٠١، أمضى بونابرت والبابا بي السابع المعاهدة البابوية التي تحدد علاقة الدولة الفرنسية بالكنيسة الكاثوليكية ولكن لا تقول المعاهدة شيئاً فيما يخص الالتزام المدرسي ـ ليس ذلك موضوعها ـ وتم إضافة "قوانين عضوية" عام ١٨٠٢ تعترف بوجود عبادات ثلاث ـ العبادة الكاثوليكية، والعبادتين البروتستانتيتين، الإصلاحية واللوثرية. وتلتزم عبر هذا الاعتراف بحماية هذه الديانات وتمويلها. وقد استفادت الديانة اليهودية فيما بعد بنفس هذه الحقوق.

في عام ١٨٥٠ ربط قانون فالو بشدة بين التعليم والدين. وتم إبطال هذا القانون سنة ١٩٠٥ أثناء عملية فصل الكنيسة عن الدولة. ولكن حتى هذا التاريخ ومنذ إلحاقهما سنة ١٨٧١ كانت الألزاس والموزيل جزءاً من الإمبراطورية الألمانية. وحينما أصبحتا فرنسيتين سنة ١٩١٩ حافظتا على القانون المدرسي السابق. "مؤقتاً" كما يوضح قانون ١٧ أكتوبر سنة ١٩١٩. ولم تكن الجمهورية مستعجلة في إخضاعهما للقاعدة العامة: لقد تم أو تقريبا نسيان الصراع الذي وقع بين الكنيسة والدولة في مطلع القرن. حققت الحرب الإتحاد المقدس وبقي الكهنة في المقاطعات الملحقة يساهمون في الحفاظ على بقاء اللغة الفرنسية قائمة فضلاً عن الشعور القومي.

هل هو اعتراف من الدولة؟

ليس هذا فقط: كانت الثورة تزمجر في ألمانيا وتبدو قريبة من فرنسا: في ١٩١٨ تكوّن ما يشبه كتيبة سوفييتية من العسكريين والعمال في مدينة ستراسبورغ. وكان الألوف من المواطنين ينضمون إلى الكونفديرالية العامة للشغل والفرع الفرنسي للأممية العمالية وكانتا تعتزمان تنظيم إضراب عام. ومدعمة من طرف الكنيسة التي قامت بحملة عنيفة ضد الاشتراكيين، فاز اليمين في انتخابات ١٩١٩ وهكذا امتنع عن مس النظام المدرسي القائم في المنطقة. وبغض النظر عن محاولة اتحاد اليسار سنة ١٩٢٤، لم

يخطر على بال حكومة قط إلغاء هذا القانون الاستثنائي. وإذن لا يطبق قانون ١٩٠٥ الشهير المتعلق بالفصل بين الكنيسة والدولة في ثلاث محافظات هي الراين الأعلى، الراين المنخفض والموزيل[١].

ومثلما كان الشأن سنة ١٨٥٠، "يتضمن التعليم الابتدائي التربية الأخلاقية والدينية". (المادة ٢٣ من قانون فالو والذي لا يعنى بالمرحلة الثانوية). تتأسس التربية الدينية المعتمدة في المدارس الإعدادية والثانوية على قوانين ألمانية تعود إلى سنوات ١٨٧٣ ـ ١٨٨٧. وهي مدونة باللغة الألمانية القديمة وغير مترجمة وغير موجودة وتبقى عمليا عصية على فهم المواطن الراغب في الإطلاع عليها. وهي قوانين لا تتحدث عن الإلزام. كثيراً ما تذكر المادة ١٠ ـ ا من قانون الرايخ المنظم للتعليم (١٨٧٣) ولكنها تقول فقط: "في كل المدارس، يجب أن ينحو التعليم والتربية إلى تطوير الدين والأخلاق واحترام السلطات القائمة والقوانين"[٢].

وأكملت ترتيبات فرنسية كثيرة هذه الترسانة القانونية ولكن

---

(١) Haut-Rhin, Bas-Rhin, Moselle.

(٢) Prochoix نجد في هذه المجلة عدد ١٣ كل القوانين الألمانية والفرنسية التي تنظم التعليم في الألزاس ـ موزيل.

بشكل فوضوي كبير. ورغم تعليمة آلان جوبي المؤرخة في مايو ١٩٩٦ فما زال الأمر بعيداً عن كل تقنين في المقاطعات المذكورة.

"لا وجود لنصوص مُؤسّسة، يلاحظ السيد راوول داراس، مفتش عام أكاديمية ماتز[١]. لا شئ مقنّن. ليس في حوزتي سوى تعليمة صادرة من رئاسة الأكاديمية لشهر جوان، وهي حصيلة الاجتماع أو "القداسة الكبرى" التي تجمع كل نهاية سنة دراسية بين السلطات الأكاديمية والدينية لتحضير الدخول المدرسي المقبل، بالإضافة إلى هذا االكتيب المتكون من ثلاثين صفحة، "التعليم الديني في الألزاس موزيل"، المصمم والمحرر من طرف دار الأسقفية. وهو عبارة عن عموميات لا أكثر. هنا نطبق نصوصاً غير موجودة". "تسير الأمور بجهل" يقول موظف سام لا يريد ذكر اسمه، ويضيف أن التطبيق يختلف من أكاديمية إلى أخرى. التعليم الديني إجباري بطبيعة الحال. ولكن بما أن الكلمة قد تصدم في أيامنا اللائكيين، ولكي يبين المسؤولون الدينيون والتربويون معاً حرصهم على حرية الضمير والتفكير يقولون أن "إجباري" تعني إدخال التعلم الديني إلى المدارس والسهر على توفيره وإن هو إلا "اقتراح" على التلاميذ. ولكن يبقى هذا الاقتراح غامض الصياغة دائماً.

---

(١) Metz.

وإذا كان من الممكن منذ تعليمة لاغرانج سنة ١٩٣٣، أن يطلب التلميذ إعفاء من دروس الدين، فكثيراً ما يتناسى بعض مديري المدارس ورؤساء الأكاديميات تذكير الأولياء بهذه الإمكانية. وبدل أن يقدموا لهم بصورة عفوية وثيقة طلب الإعفاء كما هو منصوص عليه في تعليمة الأكاديمية العامة (١٩٩٣)، ينتظرون حتى يطلبها الأولياء بأنفسهم. وتؤكد إلزامية التعليم الديني تعليمة أخرى (ماتز، ٢٠٠) مؤرخة في ٢٩ جوان، ولكنها لا تصل إلى المؤسسات سوى بعد انتهاء مهلة تقديم طلبات الإعفاء المقررة في الأول من جويلية. وفي نفس تلك السنة، لا تشير تعليمة ستراسبورغ نهائيا إلى إجبارية التعليم الديني. ولئن التزم رؤساء الكنيسة البروتستانتية بكثير من التحفظ، يحدث أن يسمع أسقف صوته عاليا، مثل أسقف ماتز صاحب السيادة بيار رافان الذي وجه بمناسبة الدخول المدرسي ٢٠٠١ نداء مهيبا إلى أولياء التلاميذ جاء فيه أن "الإنسان سيكون ممزقا بدون بعده الداخلي والروحي" وأن "غياب قيم حقيقية تجعل الإنسان ضائعاً". ويطالبهم بإلحاح للقيام بـ "واجبهم": "الشكر لكم أيها الأولياء لمقاومتكم لكل الذين يراودونكم من أجل طلب الإعفاءات والتي تعني الاستقالة من جانبكم"[١].

---

(١) النص موجود في أبرشية ميتز تحت عنوان "نداء أسقف ميتز إلى أولياء التلاميذ المتمدرسين في المدارس والإعدادات والثانويات".

ولا "يستقيل" أولياء تلاميذ التعليم الابتدائي في أغلبهم: في مقاطعة الألزاس، ٨٠ بالمائة من التلاميذ يزاولون التعليم الديني. وفي محافظة لا موزيل ٦٤.٦٢ بالمائة. أما التقرّب المسيحي فهو في برامج كل العائلات تقريباً: هو تقليد في الألزاس، تقول السيدة ر. مهندسة وأم لثلاثة أطفال. والأطفال يصرون على ذلك: هي المناسبة التي يتلقون فيها الهدايا. وعلى كل حال فساعة من الدين في كل أسبوع لا يمكن أن تضرهم، بالعكس. وعلى الخصوص، تضيف، حينما نجعلها مسلية". وكل شيء محضر لتكون ممتعة. ولا شك يراود المسؤولون الكاثوليك في الأمر: التعليم الديني ليس هو الكاتيشيزم الجاف التوجيهي، كما كان في الماضي. سيكون الأمر كذلك لو فهمنا من كلمة الكاتيشيزم ذلك التكوين الدوغمائي المعتمد على سؤال وجواب. ("الرب هو...") كما كان الحال قبل ثلاثين سنة. لقد تغير المنهج، فالطرق المؤدية إلى الله غدت أقل تزمتا وتقشفا، إذ يجب أن تكون في تناغم مع ما يعيشه الطفل. فلا ينبغي "غرس فيه العقائد" وإنما إيصال له "ما نتمسك به"، و"تطوير إيمانه"، و"الإجابة عن حاجاته الروحية"، ومساعدته على "بناء" و"هيكلة" شخصيته، كما يقول المسؤولون عن الديانات، وكذلك "إعطاء معنى لحياته". وكي يتجنب على قدر الإمكان أي معنى مزيف أو معاكس. وعلى عكس الكاثوليك، لا يستعمل البروتستانت كتبا تعليمة، يوضح

الباستور جيرار جانوس، مدير التعليم الديني، ويبدو تعليمهم أكثر "حرية" و"واقعية".

في "دعه يتكلم" كتاب المعلم الخاص بمستوى السنة الثانية والرابعة الابتدائيتين، والمنشور تحت إدارة التعليم الديني التابع لأسقفية مدينة ستراسبورغ نقرأ ما يلي: "لا يصل الطفل إلى الاضطلاع بأسئلة الحياة بمفرده. لذلك فهو يبحث عن شخص يتحدث معه. وهذه الحاجة التي تدخله في علاقات تضعه خصوصاً في توافق مع كلمة يسوع في الصحراء: (لا يعيش الإنسان بالخبز فقط ولكن بكل كلمة تخرج من فم الله)".

كلمة يسمعها عبر قصص "الرب يكلم خوزي (ص ٧٢ في الاصل)"، "الملاك جاء عند العذراء"، "أجذم عاد وهو معافى" وهي قصص يقصها عليه كتاب "الشجرة ذات الطيور"، وهو كتاب تعليمي متقن، مبتسم، فيه الكثير من الصور، والقصص المصورة. نصوص خفيفة وفي نهاية كل فصل مقطع من صلاة وإرشادات مطيبة للخواطر: "كل شيء يبدأ مع الرب. إنه معك. يصحبك أينما حللت. لا تخف"[١]. ولئن حاول هذا التعليم أن يظهر جذابا، يبدو أنه لا يحظى باهتمام أكثر من صنوف التعليم الأخرى من قبل التلاميذ. ويعود ذلك لأسباب كثيرة من بينها أنه

---

(١) L'arbre aux oiseaux, Bayard..., 1997.

لم يعد يشرف عليه معلمون تقريبا: في ٢٠٠٢ ـ ٢٠٠٣، ١٩٣ معلم (١٢١ كاثوليكي، ٣٣ بروتستانتي) من بين الـ ٦٤٣٠ الذين يقومون بتدريس الدين في الألزاس. و٣ في الموزيل من بين ٥٥٩٣[1].

إذن فهو من مهمة متطوعات دينيات يقترحهن كاهن مجموعتهن المحلية على المسؤولين في المديرية الجهوية. وبدورها تقترحهن. وليس لسيدات الدين (كما يطلق عليهن عادة) أدنى تكوين بداغوجي في أغلب الأحيان. "نفضل القرب من التلاميذ على المعرفة والكفاءة، إذ لا نقدم دروساً في المدرسة الابتدائية وإنما نعوّد التلاميذ على الإيمان ويدربون عليه"، يقول الأب جون القس العام المسؤول عن التعليم في محافظة الموزيل. تبذل "سيدات الدين" كل ما في وسعهن ولكن يشتكي الكثير من المعلمين من غياب المنهجية لديهن: أثناء الساعة المخصصة للدين، تقول ميشال د. أحاول أن أعمل في قاعة مجاورة ولكنني لا أستطيع: يتشتت الأطفال، يثرثرون ويغنون بأعلى أصواتهم ترتيلاً مسيحياً. أجدهم مهتاجين والسبورة غير نظيفة. وبعض الأيام أقرأ مكتوباً عليها "الرب عظيم، الرب روح خالص.." "تحوّل قسمي إلى سوق، تقول آن ماركيز التي تدرس قرب ستراسبورغ.

---

(١) الأرقام مقدمة من مفتشية التعليم بمدينة ستراسبورغ.

في أحد الأيام وبسبب تعاظم الضجيج، دخلت إلى القاعة التي يجرى فيها درس الدين، كان التلاميذ يغنون ويصرخون وبتوجيه من "سيدة الدين" : يسوع ضع نورك على.. ـ وكان كل واحد منهم يشير إلى جزء من جسده ـ رأسي، قلبي، يديّا، عضوي الجنسي.."[1].

لا تخضع "نساء الدين" إلى التفتيش ولذلك فهن أكثر تحرراً في التعامل مع عملهن. فليس لمفتشي التربية الوطنية، يقول أحد منهم سوى "حق نظر" لا يمارسونه أبداً على أرض الواقع: هناك من المفتشين من يعترف أنه لا يعلم أصلا ماذا يجري في دروس الدين. وليست السلطات الدينية أكثر اطلاعاً عما يجري، هي أيضاً: تملك "حق زيارة"، تمارسه مبدئيا في مراقبة السيدات المبتدئات. ويوجد مستشارون، ـ اثنان في محافظة الراين المنخفض وواحد بالنسبة للراين الأعلى ـ. ولكن لا يتمتعون برتبة مفتش. ومن هنا تأتي الانحرافات البيداغوجية التي لمسها الكثير من المعلمين، فيرونيك س. تتأسف أن بعض تلامذتها يتغيبون ليكونوا ضمن جوقة أطفال في جنازة بطلب من "سيدة الدين". كما تتأسف جوزيان ب. على كون تلامذتها وبإلحاح من الكاهن

---

(١) تحكي آن ماركيز تجربتها مطولاً في العدد المذكور سابقاً من مجلة Prochoix

يعفون من جزء من واجباتهم المدرسية خلال شهر مايو إذ يكونون مشغولين باحتفالات تشريف العذراء.

أما ساندرين س. فهي مستاءة من إحدى زميلاتها التي تضغط على تلميذين معفيين من دروسها الدينية ليعودا: "مبدئياً على المعفيين أن يحضروا درس أخلاق، ولكن ليس هناك أي مقرر وكل معلم يفعل ما يريد. وإذا كان هناك ٤ أو ٥ تلاميذ، نقوم بدروس دعم ومساعدة. أو يراجعون دروسهم ونحن نصحح الكراريس". وكلها نشاطات غير محبذة من طرف سيدات الدين اللواتي لا يتوقفن من محاولة إعادة التلاميذ المعفيين إلى الدروس الدينية. نتردد في الاحتجاج ضد هذه الاعتداءات على القوانين وعدم الاحترام لحرية الضمير تقول ساندرين س. في القرى، كل الناس هم ضدنا: القس أو الباستور وتقريباً كل أولياء التلاميذ وفي أغلب الأحيان مفتشية الأكاديمية التي لا تحبذ إثارة المشاكل". وهو الشيء الذي لم تتردد في فعله بينيدكت ب. معلمة في نواحي ماتز: قدمت لها معلمة الدين نسخة من نص كانت قد وزعته على التلاميذ قبل نهاية درسها، مؤرخ في يوم ٢٦ يناير ٢٠٠٤ وموقع من طرف كاهن القرية الأب ك. ويقول النص:

"أولياء التلاميذ الأعزاء،

ككل سنة بمناسبة عيد التقدمة أو تقديم يسوع في المعبد،

ترغب الكنيسة هي أيضاً أن تقدم أبناءكم إلى المولى وتضعهم تحت حماية الرب وذلك بوضع على رؤوسهم اليدين وإعطائهم البركة المهيبة. ستتم هذه الحركة على كل طفل حاضر.. ومدعو كل رضيع وكل أطفال الروضات، وكل أطفال المدارس الابتدائية".

لم تفهم سيدة الدين سخط المعلمة، لقد استنكرت الأمر تقول بينيدكت ب. واشتكت إلى القس الذي بدا متساهلاً ينشد التوافق: مذاك أصبحت النداءات الموجهة لأولياء التلاميذ تعلق في الكنيسة. "ينبغي أن يكون الحذر مطلوبا باستمرار، تقول المعلمة. دعوات للأولياء، الإعلان عن الاحتفالات والمناسبات الدينية، استدعاء التلاميذ من أجل حضور طقس ديني، تعليق الصور الورعة في الأقسام - الاكتساح الديني للفضاء المدرسي مستمر في القرى، ولا أحد يشعر به: تغلغل الدين في عادات الناس وأخلاقهم حتى اختلطت الأمور - وأصبح البيداغوجي والديني سيان في نظر أغلبية الناس". ويختلف الحال في الإعداديات وخصوصاً في الثانويات. فمنذ السنة الأولى إعدادي، يبدأ عدد التلاميذ الذين يتلقون تعليماً دينياً ينخفض بشكل كبير ومفاجئ: في إعداديات الألزاس وصل إلى ٣٥ بالمائة. وفي الموزيل ٤٥ بالمائة. هل من أجل إيقاف هذا التقهقر؟ إذ يحدث أن "تضيع" طلبات الإعفاء ويعاقب المتغيبون! منذ سنتين،

حرمت أم من المساعدات الاجتماعية تقطن قرب ستراسبورغ لأن ابنتها كانت تغيب عن دروس الدين. واستعادت المرأة حقوقها بعد حملة صحفية انتقدت تعسف أداء الإدارة. وقد حرم تلميذ ممتاز يدرس في إعدادية تايسون بمدينة ماتز من ملاحظة "تهنئة" التي يستحقها نظراً لنتائجه الباهرة في كل المواد بسبب غياباته المتكررة في دروس الدين. وقد اضطرت الإدارة أن تعترف مرغمة بخطئها مرة أخرى.

وحدها الثانويات تفلت من هذا الوضع. حقيقة لم يعد يمثل التعليم الديني فيها سوى وجوداً رمزياً: لا يزاوله في الألزاس سوى ٣ بالمائة من التلاميذ. وفي الموزيل ٢,٦ بالمائة. وتتم فيه دروس حقيقية إذ كل الأساتذة يحملون شهادة ليسانس في علم اللاهوت. والبعض منهم مرسّم. في سنة ٢٠٠٠ استحدثت وزارة التربية شهادة كفاءة مهنية للتعليم الثانوي في مادة الدين ولكنها لم تكن كذلك إلا بالاسم: يحصل فعلا من يتحصلون عليها على الراتب المناسب والترسيم ولكنها ليست كالشهادات الأخرى لأن صاحبها لا يستطيع ممارسة العمل سوى في الألزاس والموزيل. وهي شهادة "مخصصة" يقول المشرفون على التعليم كي يهدئوا من احتجاجات المناضلين اللائكيين.

ويختلف برنامج الدروس من أستاذ إلى آخر فالسيد م.م الأستاذ في ثانوية كليبر بمدينة ستراسبورغ "ينطلق من الأسئلة التي

يطرحها التلاميذ" ويحاول أن "يجد رابطاً مع ما يقومون به في المواد الأخرى وخاصة الفلسفة". تبدو المواضيع المطروحة متماثلة: الوعي، مكانة الإنسان في المجتمع، المسألة الأخلاقية، ولكن يختلف الأمر في مسألة الأهداف التربوية، يوضح نفس الأستاذ. يهدف درس الدين إلى إعطاء التلميذ معنى لحياته. وربما تكون السيدة د. أستاذة الدين في ثانوية شومان بمدينة ماتز أبعد عن الفلسفة فهي "تدرس الإيمان" انطلاقاً من العهد القديم والجديد لتلاميذ السنة الثانية إعدادي. ومن خلال تصرفات الحواريين لتلاميذ السنة الثالثة وأما مع تلاميذ الأولى ثانوي وحتى صف البكالوريا فتعتمد على النصوص التي تعالج الواقع اليوم في محاولة لإيقاظ "الروحانية" لدى التلاميذ".

السيد ميشال ج. هو اليوم مدير مدرسة إعدادية خاصة ولكنه اشرف مدة ١٥ سنة على التعليم الديني وقد حاول الرجل أن يجدد إذ في درس "الظواهر الاجتماعية" مع تلامذة السنة الأولى ثانوي، نظم معرضاً حول الإشهار وأظهر فيه صور عارية: "كانت طريقة للبحث عن ماهية الجسد في المجتمع المعاصر، وماهية العري في سفر التكوين.." وقد صدمتُ الكثيرين بهذه الطريقة وتركتُ بعض اضطراب بين الأوساط التقليدية.

ولمحاولة جعل دروس الدين أكثر جاذبية تقترح بعض الثانويات على تلامذتها برنامجا أطلق عليه: اليقظة الثقافية

والدينية. ويشرف عليه كهنة وباستورات أو لائكيون تحصلوا على تكوين ديني. ويعالج البرنامج مسائل قد تهم المراهقين: الأخلاق، التربية الجنسية، الاقتصاد السياسي، وديانات الكتاب. القصد هو البقاء على علاقة ما مع الشباب، هم يبتعدون عن المسيحية أكثر فأكثر، و"أخلقتهم" وإعطائهم بعض المعارف حول الأديان، يقول جون كلود م. أستاذ الفلسفة. ولعدم وجود دروس في الفلسفة في الثانويات المهنية، تم وضع برنامج "اليقظة الثقافية والدينية" ليسد ذلك الفراغ الفلسفي. ولكنه لا يجذب أكثر مما تجذبه الدروس الدينية.

يتراجع عدد التلاميذ المسجلين في دروس الدين سنة بعد أخرى، وحتى في التعليم الابتدائي. أما على مستوى التعليم الثانوي فحدث ولا حرج إذ أصبحت أعدادهم ضئيلة للغاية، تدعو إلى الشفقة. ويعود كل ذلك إلى توسع العلمنة في المجتمع بصفة عامة: ضعف ارتياد الكنائس والمشاركة في المراسيم الدينية، ضعف ميل الشباب وابتعادهم المتواصل عن العمل في ميدان الدين..

ألا يعني ذلك أن الزمن قد حكم على النظام المدرسي الخاص في الألزاس ولا موزيل بالزوال؟

"هو معرض للخطر فعلاً"، يعترف القس العام الأب جون

ماري ستوك. عدم وجود التلاميذ يؤدي إلى إلغاء المناصب وسيجد كثير من معلمي الدين المسيحيين والبروتستانت أنفسهم في بطالة. وإذا ما تحول التعليم الديني إلى قضية اختيارية (و هو ما يرفض تصوره جملة وتفصيلا صاحب السيادة كريستان كراتز، أسقف ستراسبورغ المساعد) أو أن يلغى القانون المدرسي الخاص نهائياً[١] وهو الأسوأ، ستخسر الديانات المستفيدة ليس شرف المنزلة فحسب وإنما ستحل بها كارثة مالية: تدفع الدولة أجور ١٤٦٥ منصب عمل، وهو ما كلفها سنة ٢٠٠٣: ٣٦ مليون أورو. هبة مالية، وزن اجتماعي، تأثير إيديولوجي، هذا ما يخشى فقدانه. ومن الطبيعي أن يشعر ممثلو العبادات بالقلق أمام التناقص المستمر لأعداد التلاميذ لديهم. نعم إنه خوف الانزلاق نحو "عدم اكتراث" كما يقول الأب ستوك.

وبغض النظر عن اقتراحه بجعل التعليم الديني اختيارياً، لم يتلق تقرير ستازي أية اعتراضات ـ "اعتبرت اللجنة أن التأكيد على اللائكية لا يعني إعادة النظر في القانون الأساسي الخاص في الألزاس والموزيل". ولا ترغب في اختفاء تمثال المسيح المصلوب من المدارس. ويبدو أن منع العلامات "التبشيرية" في

---

(١) وهو أمر مستبعد اليوم في ٢٠٠٩ فما يجب أن نخشاه هو العكس تماما تحت رئاسة الرئيس القس.

المدارس لا تقلق أحداً إذ قليلون هم تلاميذ الابتدائي الذين يعلقون صليبا، وأكثر قلة منهم الذين يضعون قلنسوة يهودية فوق رؤوسهم. (يوجد ١٥٠ تلميذ يهودي في التعليم العام).

أما السكان ففي أغلبيتهم يتمسكون بهذا النظام المدرسي الخاص بمنطقتهم. ومن جانب يرجع ذلك إلى إطلاعهم السيئ أو إلى سقوطهم فريسة المناورات كما يقول البعض إذ يظن الكثيرون أنه مرتبط بالنظام المحلي العام، بتلك الامتيازات الاجتماعية الموجودة منذ المرحلة الألمانية: التعويض شبه التام لثمن الأدوية، مجانية العلاج في المستشفى، حق الصيد المحترم للإكولوجيا. "وإذا ما حركنا شيئاً سنحرك الآخر حتما: هذا غير صحيح، ولكن الناس مقتنعون بذلك، يقول الأستاذ الجامعي جيرار ف. نقول القانون الأساسي المحلي فيفهمون القانون المدرسي. كلهم متمسكون بيومي العطلة الإضافيين (الجمعة المقدسة والقديسة إتيان يوم ٢٦ ديسمبر)، والمعلمون يستفيدون من ساعة أسبوعية هي الساعة التي تقام فيها دروس الدين.. فضلا على أن أغلبية الناس يعتقدون أن هذا النظام جزء لا يتجزأ من هويتهم وهو الذي يميزهم. وعلى كل حال فالدين متغلغل فيهم أيما تغلغل: "فمنذ قرون وهم يرتادون الكنائس وفي أيامنا على الخصوص أيام الأعياد الكبرى، ويرون تماثيل المسيح المصلوب معلقة في القاعات المدرسية. وقبل ثلاثين سنة كانت الراهبات هي

التي تدرسن في المدارس. عشرون منهن لا زالت تدرسن لحد الآن في المدارس وهذا لا يصدم أحداً لأن ذلك جزء طبيعي من المشهد العام". وألف الوضع حتى غير المؤمنين: "الاختلاط في المدارس مع الكاثوليك والبروتستانت واليهود، ورؤية أديانهم تُدرّس وأعرافهم تُحترم يعلمنا أن نتعرف عليهم أكثر ويجعلنا أكثر تسامحاً"، يقول روبير ج. وهو أستاذ ماركسي، ذلك نوع من العيش ـ معاً، يضيف. وبدون شك يدين اللائكيون "الخُلص غير المهادنين" هذا النظام المدرسي الخاص: النقابات، رابطة حقوق الإنسان، فيدرالية المهمات اللائكية، فيدرالية أولياء التلاميذ.. كلها تنتفض ضد خصوصية الوضع في الألزاس والموزيل، ولكن ليس للقيادات العليا جنود: "نحن عاجزون عن تنظيم مظاهرة، يعترف مسؤول، إنه الخمول". ويبدو أن الأمر عام: "لست متأكد أن الناس ينزلون إلى الشوارع للمطالبة بالإبقاء على القانون الأساسي المدرسي، يقول الباستور جيرار جانوس، ما يهم الناس هو القانون المحلي ـ امتيازات الضمان الاجتماعي".

إن وجود تعليم ديني ضمن النظام المدرسي اللائكي والذي يتعارض مع مبادئ الجمهورية الأساسية ـ الجمهورية الفرنسية جمهورية لائكية (دستور ١٩٤٦) ـ، وأن يديم قانون الألزاس والموزيل ذلك التحالف ما قبل الثوري بين الكنيسة والدولة

(رئيس الجمهورية هو الذي يعيّن زعماء الديانات).. كل هذا لا يصدم أحداً تقريباً.

وبالنسبة للكثيرين فحتى مفهوم اللائكية ذاته ليس واضحاً: "اللائكية هي المدرسة للجميع"، تجيب معلمة متربصة بعدما فكرت طويلا وانتظرت دون جدوى الجواب خفية من زملائها. أليست اللائكية شرط الديمقراطية، وعدم رعايتها لأي دين أليس ذلك هو حرية العقيدة؟ قلتُ فاستغربوا: "اللائكية الحقيقية، تعارض المتربصة، أليست هي التي ينبغي أن تسمح بتعليم كل الأديان في المدرسة؟".

وتلتقي رؤية الطالبة وإن اختلفت اللغة وتهذبت مع ما يؤكده ممثلو الكنيسة. وكلهم يقبلون بطيبة خاطر أن يُعترف بالإسلام وأن يكون مساويا للديانات الأخرى. وكلهم يقولون أنهم من أنصار اللائكية. ولكن تصورهم للائكية ـ التي يقولون عنها أنها متسامحة ومنفتحة ـ لا تلتقي مع لائكية "اللائكويين" كما يقولون بعجرفة والتي يصفونها بـ "الانغلاق" أو "الطائفية": "المعاهدة البابوية هي إقامة فعلية وإيجابية للائكية حقيقية"، يعتقد أسقف ستراسبورغ المونسينيور جوزيف دوري.

هل هو تشويش في المفاهيم، تزوير؟

كان من الممكن الابتسام لو كان الأمر مجرد جدالات بين

فلان وفلتان. ولكن يتعلق الأمر بمهمة المدرسة ذاتها والتي هي ليست إهداء طبق من الاعتقادات الممكنة للتلاميذ ولكن لترك كل إيديولوجية دينية في غرفة المقدسات، ولتربيتهم على استعمال العقل والعقل فقط.

إنه لمن المفزع حقا أن يرى وزير التربية الوطنية عكس هذا: وهو يتنبأ بانخفاض عدد التلاميذ في السنة المقبلة في لا موزبل، قرر إلغاء ٩٩ منصب عمل في كل المواد. ما عدا في مادة الدين، التي استفادت من ١٢ منصباً إضافياً.

أرقام دالة..

الديانات: في الألزاس والموزيل ١,٣٠٠,٠٠٠ كاثوليكي. ٣٢٥٠٠٠ بروتستانتي (٣٠٠٠٠٠ من اللوثريين، ٢٥٠٠٠ إصلاحيين). ٢٠٠٠٠ يهودي. المسلمون حوالي ١٢٠٠٠٠. دينهم غير معترف به.

التعليم: أغلب المناصب هي في يد الكاثوليك. يوجد ١٥٠ تلميذ يهودي فقط في المدارس العامة، أغلبيتهم ينتسبون إلى المؤسسات اليهودية. الرواتب: الكاهن، الباستور، الحاخام: يتلقون راتباً شهرياً (٢٠٠٤) يتراوح ما بين ١٠٦٧ و١٩٨١ أورو. أورو ولا يخضع ممثلو العبادات لنفس السلم في الوظيف العمومي. يوجد أسقف كل من ماتز وستراسبورغ في المؤشر ٨٢٠ الزائد. بينما نجد رؤساء الكنائس البروتستانتية في المؤشر ٥٩٢ وكبير الحاخامات في مؤشر ٥٥٠. ولا أحد استطاع أن يقدم تبريراً يتعلق بهذه اللامساواة في وضع الرواتب.

متى يعود العقل
إلى المدرسة الفرنسية؟

وكما أشار إلى ذلك اتحاد العائلات اللائكية في بيان صحفي نشر يوم ٢٩ ديسمبر ٢٠٠٨ لا يزال تفكيك المدرسة العمومية لصالح المدرسة الخاصة مستمراً بقوة". لقد تم غلق ٥٦ ثانوية في التعليم المهني من طرف اليمين منذ ٢٠٠٢، من بينها ١٦ في موسم ٢٠٠٧ ـ ٢٠٠٨ فقط وتم غلق ٨٠ قسما في التعليم العام. وفي هذه الأثناء تم فتح ٢٤٤ قسماً في التعليم المهني الخاص وتم السماح بفتح ٧ ثانويات مهنية خاصة من طرف الحكومة في موسم ٢٠٠٧ ـ ٢٠٠٨ فقط.

ومن جهة أخرى يطالب أعضاء مجلس الشيوخ من الحكومة "إدامة غلاف مالي يقدر بـ٢٥٠ مليون أورو سنويا كميزة لصالح التعليم الابتدائي الخاص وذلك ضمن ميزانية البلديات".

ولكن هناك "الأحسن" إذا صح التعبير هنا:

في يوم ١٨ ديسمبر من سنة ٢٠٠٨ أمضى الفاتيكان ووزارة الخارجية الفرنسية اتفاقاً حول الاعتراف بشهادات التعليم العالي الكاثوليكي [...] ترغب الدولة في إعادة النظر في قانون ١٨ مارس ١٨٨٠ الذي ينص على احتكار الدولة حق منح الشهادات وذلك لتمكين المؤسسات الدينية من منحها هي أيضاً. لقد سبق وأن أعيد التأكيد على قانون ١٨٨٠ من قبل مجلس الدولة سنة ١٩٨٤ والذي اعتبر أن مبدأ احتكار الدولة لحق منح الشهادات والرتب الجامعية يفرض نفسه حتى على المشرع.. حسب وكالة الأنباء الفرنسية لا يمس الاتفاق الشهادات "الكنسية" فقط (من ضمنها الفلسفة) وإنما يشمل الشهادات الأخرى التي لا علاقة لها بالدين.

فإلى متى تعميم تمثال المسيح المصلوب في الأقسام؟

الفهرس

هذا الكتاب

يزداد نشاط ممثلي الكنيسة خصوصاً على مستوى هيئات الإتحاد الأوروبي في كل من بروكسل استراسبورغ، فيتدخلون في تحرير التوصيات وتوجيه السياسيين، في محاولة لفرض تشريع خانق للحريات على الأوروبيين وذلك تحت شعار الدفاع عن الحرية. ولئن كان هذا الأمر بديهيا، فإنه يبقى مجهولاً لدى أغلبية الأوروبيين. ما يحيّرني وأنا أتجاذب أطراف الحديث مع معارفي وأصدقائي، من كل الأعمار، هو جهلهم التام، ليس في ما يتعلق بنشاط الكنيسة السياسي فحسب بل بكل مواقفها الدوغمائية ومبادئها الأخلاقية وكذا نمط الحياة والعقلية التي تحاول أن تفرض على من يسيرون على تعاليمها، وبشكل يزيد أو ينقص حتى على الذين لا يعيرونها أدنى اهتمام.


ISBN 978-9933350086

